الشيخ الأكبر

محيي الدّين بن العَرَبي

سُلطان العَارفين

تأليف

عبد الحفيظ فرغلي علي القرني

الكتاب: سلطان العارفين

الكاتب: عبد الحفيظ فرغلي القرني

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

القرني، عبد الحفيظ، فرغلي

سلطان العارفين / عبد الحفيظ فرغلي قرني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٤ – ١٧٢ – ٩٩١ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٦٤٥ / ٢٠٢١

الشيخ الأكبر

محيي الدّين بن العَرَبي

سُلطان العَارفين



بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدا»

صدق الله العظيم

تقديم

محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، هو أحد أشهر المتصوفين لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفية بالشيخ الأكبر ولذا ينسب إليه الطريقة الأكبرية الصوفية، وهو من كبار المتصوفة والفلاسفة المسلمين على مر العصور، ولقب بعدة القاب مثل "الشيخ الأكبر، الكبريت الأحمر، رئيس المكاشفين، البحر الزاخر، بحر الحقائق، إمام المحققين، وسلطان العارفين".

ولد "محيي الدين ابن عربي"، في مدينة مرسية من أب مرسي ينتمي للمدينة وأم أمازيغية، وهناك حفظ القرآن الكريم، ودرس الحديث والفقه وتنقل بين البلاد طلبا للعلم حتى استقر به المقام في دمشق فلم يبرحها طوال حياته إلا لسفرات قصيرة كرحلة الحج، لكنه كان لا يلبث أن يعود إليها.

غير أن نشأته في مرسية كانت قد حددت مساره حتى وهو خارجها، فقد علمته التصوف، وفي الأندلس في تلك الفترة كان التصوف قد تطور كثيرا فلم يعد مجرد نزعة تقشفية تهدف إلى التغلغل في صميم الكون والنفس الإنسانية واكتشاف أعماق الحياة، وأصبح التصوف في هذا العصر يمثل ناحيتين هامتين، أحداهما

الجانب العملي، ويقصد به المجاهدة والمكابدة وما تدعوان إليه من تهذيب خلقي، وما تكلفانه من سلوك ألوان خاصة في الرياضة الروحية كالصوم والعزلة والسهر والصمت والفكر والسياحة والذكر وغير ذلك. الجانب النظري الذي تثمره الناحية العملية من معرفة لواجب الوجود وتعبير عما يشاهده العارف وعما يحس به في أثناء سيره في طريقه من أحاسيس القرب أو المشاهدة أو الشوق أو الأنس أو الوجد أو غير ذلك.

واختلفت تعبيرات الصوفية بين هاتين الناحيتين اختلافا أثار كثيرا من النقاش والجدال، وبين مؤيد ومعارض ومدافع ومهاجم، وكونت هذه الحالة حركة فكرية كان لزاما أن تشغل عقول العلماء والمفكرين. في هذه الظروف نشأ ابن عربي الشيخ الأكبر، الذي أثار أكبر ضجة في تاريخ التصوف، وترك من خلفه ثروة ضخمة من المعارف الصوفية، ومن أهم الكتب التي قدمها "محيي الدين"، "تفسير القرآن لابن عربي"، "الفتوحات الملكية"، وقد ضَمّنَه أهم آرائه الصوفية والعقلية ومبادئه الروحية، وادعى أنه كتبه بأمر من مرشده السماوي، أيضا من أبرز كتبه"فصوص الحكم، "شجرة الكون"، "الإعلام بإشارات أهل الالهام"، "اليقين"، فضلا عن ديوانه الشهير "ترجمان الأشواق".

***

كان أبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف. وكان جده أحد قضاة الأندلس وعلمائها، فنشأ نشأة تقية ورعة نقية من جميع الشوائب الشائبة.. وهكذا درج في جو عامر بنور التقوى، فيه سباق حر مشرق نحو الشرفات العليا للإيمان.

وانتقل والده إلى إشبيلية وحاكمها أن ذاك السلطان محمد بن سعد، وهي عاصمة من عواصم الحضارة والعلم في الأندلس. وما كاد لسانه يبين حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب الكافي، فما إن أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزًا في القراءات ملهما في المعاني والإشارات، ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفقه تنقل بين البلاد واستقر أخيرا في دمشق طوال حياته وكان واحدا من اعلامها حتى وفاته عام ١٢٤٠ م.

***

ويُحكى أن "محي الدين" في عام ٥٩٤ هـ، رأى نفسه، وكان مستيقظا، أنه أمام العرش الإلهي المحمول على أعمدة من لهب متفجر، ورأى طائرًا بديع الصنع يُحلق حول العرش، ويصدر إليه الأمر أن يرتحل إلى الشرق، وينبئه بأنه سيكون هو مرشده السماوي وبأن رفيقًا من البشر ينتظره في مدينة فاس، فذهب إلى غرناطة مع

شيخه أبي محمد عبدالله الشطاز، وبين عامي ٥٩٧ و ٦٢٠ هـ بدأ رحلاته الطويلة إلي بلاد الشرق، حتى استقر في دمشق.

وفي عام ٥٩٨ هـ، ذهب الى مكة واستقبله فيها "أبي شجاع بن رستم الأصفهاني" وهو من كبار شيوخ بلاد فارس حينها، فتزوج من ابنته "نظام" التي كانت عونًا له، واتخذها رمزا ظاهريا للحكمة الخالدة، وصور ذلك في قصائده التي ضمها ديوان "ترجمان الأشواق".

وفي ذلك الحين في إحدى تأملاته، رأي مرشده السماوي مرة أخرى، يأمره بتأليف كتابه الجامع الخالد "الفتوحات المكية" الذي ضمن فيه أهم آرائه الصوفية والعقلية ومبادئه الروحية.

ويذكر أنه مرض في شبابه مرضا شديدا وفي أثناء شدة الحمي رأى في المنام أن عددا ضخما من قوى الشر، مسلحين يريدون الفتك به، يحيطون به، وفجأة ظهر له رأى رجل حسن الوجه قوي البدن، حمل على هذه الأرواح الشريرة ففرقها ولم يبق منها أي أثر فيسأله محيي الدين من أنت؟ فقال له أنا سورة يس. فلما أستيقظ رأي والده جالسا إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس. ثم لم يلبث أن برئ من مرضه، وألقي في روعه أنه معد للحياة الروحية وآمن بوجوب سيره فيها إلى نهايتها ففعل.

ولـم يكـن يمـر عـام مـن أعـوام عمـر محيـي الـدين دون أن يقـوم بحدث مهم، ففي عام ٥٩٩ هـ، أدى فريضة الحج، وفي زيارته لبيت عبدالله بن العباس ابن عم الرسول "صلي الله عليه وسلم"، واستخار المولى حينها وكتب رسالة "حلية الأبدال".

وفي عام ٦٠١ هـ، اتجه الى الموصل، وجذبه تعاليم الصوفي علـي بـن عبـدالله بـن جـامع، الـذي تلقـي لـبس الخرقـة عـن الخضـر مباشرة، ثم ألبسها لمحيي الدين ابن عربي بدوره، وفي نفس العام زار قبـر الرسـول، وقـال: "وقـد ظلمـت نفسـي وجئـت إلـى قبـره صـلى الله عليه وسلم فرأيت الأمر على ما ذكرته وقضى الله حاجتي وانصرفت ولـم يكـن قصـدي فـي ذلـك المجـيء إلـى الرسـول إلا هـذا الهجيـر". وبعـد ذلـك بسـت سـنوات وبالتحديـد فـي عـام ٦٠٧ هـ ارتحـل الـى القاهرة، و في عام ٦٠٨ هـ عاد إلى مكة مرة أخرى، وبقي فيها لمدة ثـلاث أعـوام حتـى عـاد إلـى دمشـق، وزار قونيـة بتركيـا، وتـزوج هنـاك بوالدة صدر الدين القونوي، ثم رحل إلى أرمينيا.

أما بغداد وكانت من معاقل الصوفية فقد زارها في عام ٦١٢ هـ، وفيها التقي بـالصوفي الأشهر "شهاب الدين عمر السهروردي"، الذي سُئل عنه: ما تقول في ابن عربي؟ فقال: هو بحر الحقائق.

و في عام ٦١٥ هـ كانت زيارة الثالثة لمكة المكرمة، وهناك وجد عدد من الفقهاء يخوضون في سيرته ويطعنون في عقيدته بسبب أشعاره، وخصوصا البيت الشهير القائل:

أدين بدين الحب أنى توجهتْ ركائبه، فالحب ديني وإيماني

ولم يطل مقامه هناك وآثر العودة إلى دمشق، فأكمل حياته بها، متفرغا للعلم، وظل مقيما في دمشق حتي وفاته في ٢٨ ربيع الثاني من سنة ٦٣٨هـ الموافق ١٦ نوفمبر من سنة ١٢٤٠م ودفن في سفح جبل قاسيون في دمشق.

لكن للأسف فالمكانة التي كان يوليها البعض لابن عربي كبحر للحقائق، لم تكن لتحول دون اتهام البعض الآخر له بالكفر والزندقة، لا لشيء سوى لاتهامه بأنه كان يعتقد بفكرة وحدة الوجود التي يعد الحلاج رائدها وشهيدها؛ فابن عربي كان يرى أن الله والطبيعة حقيقة واحدة؛ بمعنى أنه ليس هناك خالق أو مخلوق وإنما كل ما يراه الإنسان هو الله في صور متعددة، ويدلل ابن عربي على ذلك فيقول: "إن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل في كل شيء، بل يراه عين كل شيء".

***

ومازالت تلك الآراء تجد من يرددها، فقد كُتبت عن ابن عربي كتبًا كثيرة يزعم مؤلفوها أنها تبين مواطن كفره وزندقته، منها كتاب برهان الدين البقاعي "تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي"، فرد عليه جلال الدين السيوطي، وهو أحد تلامذة ابن عربي، بكتاب جاء عنوانه على نفس شاكلة عنوان البقاعي وهو "تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي" وفيه يبين السيوطي السمو الروحي لابن عربي، ويدحض اتهامات كفره مثبتا بطلانها ومرجها إياها لسوء فهم القائلين بها. وذكر ببيتي شعر لابن عربي هما:

وأما أصول الحكم فهي ثلاثة كتابٌ وإجماعٌ وسنَّة مُصطفى

ورابعها منَّا قياسٌ محققٌ وفيه خلافٌ بينهم مرَّ وانقضى

مبينا أن سوء الفهم وربما سوء النية يدفع البعض للطعن في الرابعة التي يقر محيي الدين بأنها موطن خلاف، لكن يبدو أن تلك الاتهامات ظلت تجد من يرددها، ويروجها، فظل قبر ابن عربي مهملا لسنوات طوال قبل أن يعنى به السلطان العثماني سليم الأول بعد دخول العثمانيين إلى دمشق، عام ١٥١٦ للميلاد، ويمنحه مكانة عظيمة، فبنى هناك مسجدا وضريحا صار قبلة لكل من يؤمن بمحيي الدين بن عربي، شيخًا أكبر.

عبد الحفيظ فرغلي القرني

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد..

فهذه سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفذاذ، الذين تركوا ثروة ضخمة من الآثار والآراء والأذواق، ضمنها عددا لا يكاد يحصى من كتبه التي عدت عليها عوادى الزمان، فما ضاع يعد أضعافا مضاعفة لما بقى منها.

هي سيرة الصوفي المرسى العظيم "محيي الدين بن العربي" الذي عاش في الفترة التي تجمع بين منتصف القرنين السادس والسابع الهجرين، هذه الفترة التي كانت زاخرة بالأدب والتصوف، في بيئة من أخصب بلاد العالم الإسلامي رقة وذوقا وأدبا وتصوفا، هي بيئة الأندلس، التي على رباها نشأ عاهل التصوف العظيم، ثم خطت قدماه تذرع البلاد شرقا وغربا، بحثا عن المعرفة، وارتياد للحكمة.

هي سيرة "ابن عربي" الذي سطع نجمه في أفق الثقافة الإسلامية الصوفية حيا وميتا، ووجد من الأنصار والخصوم من يناصرون ويناوئون، وشغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان، وأثار ثائرة

قوم واعجاب آخرين، وظلت كتبه إلى ذلك الوقت منبعا فياضا وكنزا دفينا يهرع إليه طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة.

هي سيرة ذلك البطل الذي أطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما دلالتهما العظيمة.

أما اللقب الأول فهو "الشيخ الأكبر" وهذا اللقب لم يطلق عليه إلا بعد أن اجتمعت له أصول الرياسة ومقومات القيادة الروحية، وتخرج على يديه الكثير من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون حوله بالمئات في كل مكان يحل فيه، يحتفلون حوله ويستمعون إلى محاضراته، وينصتون إلى آرائه وأذواقه في شعره ونثره. فيجدون في ذلك بلسما شافيا لجراحهم، وبعثا قويا لموت نفوسهم، وحفزوا صادقا لهممهم، وارواء لظمأ أرواحهم. وكانوا هم عند حسن ظنه بما أفادوا من تعاليمه، وساروا على طريقه واستجابوا لصادق نصحه، فشفت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وارتوت أرواحهم وانطلقوا يحلقون في فضاء الروح.

ولقد وضع "الشيخ الأكبر" مناهج تتناول الصوفي في جميع مراحل طريقه من لدن انبعاث الرغبة في نفسه، ثم مضيه مريدًا سالكًا حتى تنكشف أمامه الطريق، فيتمكن من الوصول إلى غايته بنجاح.

كما وضع مناهج للشيوخ أنفسهم يستأنسون بها في أرشادهم، كما يستأنس بها مريدوهم حتى يعرفوا القائد الحق فيحترمون له قدوته ويحفظون له حقه وبذلك يزهر غرسه ويدنو ثمره.

وكان هو نفسه – سلوكًا وتصرفًا وقولًا وعملًا وآدابًا وأخلاقًا – في الذروة العليا من الكمال الإنساني الذي بلغ به مراتب أهل الفضل، وجعل شيوخ عصره يجلونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة. من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب "الشيخ الأكبر". أما اللقب الثاني فهو "سلطان العارفين". وهو لقب يكاد يكون متلازما مع اللقب السابق، فلم يستحق ابن عربي لقب "الشيخ الأكبر" إلا بعد أن تبوأ عرش المعرفة، وأدرك من الأسرار ما عز على غيره، واستطاع أن يشير إلى حقائق تاهت في الطريق إليها العقول، وتفرقت العزائم، وأدلى بمعان رائعة وحكم بالغة، تدل على رسوخ قدمه وعلو كعبه وسعة معرفته.

ولقد شهد بذلك أعظم الصوفيين في عصره، ومنهم أبو مدين في المغرب، والسهروردي في بغداد، وابن الفارض في مصر.

أطلق عليه أبو مدين هذا اللقب "سلطان العارفين".

وقال عنه السهروردي: إنه بحر الحقائق.

وأدرك ابن الفارض روعة الفتوحات المكية التي كتبها ابن عربي فقال: إنها خير شرح لتائيته المشهورة "نظم السلوك".

وهذه تقريرات إن دلت على شيء فإنما تدل على ما وصل إليه الشيخ الأكبر من تألق ومقدرة.

ومن أجل ذلك أطلق عليه "سلطان العارفين" وهو جدير بهذا اللقب؛ لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة في هذا الطريق الصوفي الغاص بالعقبات والمفاوز والمتاهات الا وأدلى فيها ببيان واف، وعبارات رائعة نظما ونثرا. واتسعت معرفته فشملت غير العلوم الصوفية براعة ودقة ودفهما وأداء.

هذه سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي سلطان العارفين، التي نرجو أن تكون حافزا لنا، ومنارا نهتدي به في حياتنا الجديدة. والله خير موفق ومعين.

عبد الحفيظ فرغلي القرني

البيئة والعصر

كانت الأندلس هي الموطن الأصلي لابن عربي، ففيها ولد وعاش ما يقرب من أربعين سنة من حياته العامرة الزاخرة الخصبة.

والأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة "ايبيريا" التي كانت إقليمًا رومانيًا مزهرًا[1].

وكان لموقع الأندلس الجغرافي الممتاز أثر كبير في خصوبة تربتها واعتدال جوها وحسن مناخها، مما كان سببا في صحة أجسام أهلها، وقوة جنانهم، وسعة إدراكهم وخصوبة خيالهم وسعة خاطرهم وشدة ذكائهم، مما دعا "لسان الدين الخطيب" أحد وزرائها الأعلام إلى وصفها بقوله:- "خص الله تعالى بلاد الأندلس من الريع، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكهه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية؛ وكثرة السلاح وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها"[2].

---

(1) دائرة معارف الشعب مادة "أندلس"

(2) نفح الطيب حـ١ ص٢٥٤ مطبوعات دار المأمون.

ويقول أبو عامر السلمى عن إقليم الأندلس: "هو خير الأقاليم وأعدلها هواء وترابا، وأعذبها ماء، وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا، وهو أوسط الأقاليم وخير الأمور أوسطها"(٣).

وكذلك قول أبو عبيد البكري عن الأندلس: "الأندلس شامية في طيبتها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها. صينية في جواهر معادنها، عدنية في مواقع سواحلها".

تلك هي الأندلس التي افتتحها المسلمون في سنة ٩٢هـ بقيادة "طارق بن زياد" وظلت تحت حكم الإسلام زهاء ثمانية قرون، ازدهرت في خلالها الحضارة الإسلامية ازدهارا عظيما، وكانت مركز إشعاع أمد العالم الغربي بالعلم والتقدم، وأنار أمامه الطريق إلى رسم مستقبل علمي مجيد، وانطلقت من آفاق الأندلس اشعاعات مضيئة في شتى العلوم والمعارف والفنون، مما جعلها تنافس شقيقاتها في المشرق علما وثقافة وتألقا وازدهارا.

ونبغ في ربوعها أعلام أفاضل دانت لهم الحياة، وأحنت أمامهم قامتها الأيام إجلالا وإعزازا.

---

(٣) المرجع السابق ص٢٥٥.

واشتهرت في الأندلس مدن كانت لها سوابق ومزايا في تلك الأمور المتقدمة. من بين هذه المدن "مرسية".

ونقع "مرسية" على وادي شقورة قرب مصبه، وهو قسيم نهر الوادي الجديد الكبير.. وهذه المدينة كانت حاضرة شرق الأندلس في العصر الإسلامي، وهي مدينة إسلامية محدثة، أسسها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦هـ.

وازدهرت "مرسية" في عصر الخلافة وعمرت، وأصبحت من حواضر الأندلس الكبرى، حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبة وتمزقت وحدة الأندلس.

وتعرضت "مرسية" لحكومات متعاقبة على إثر ذلك، حتى آلت المرابطين ثم الموحدين ثم استولى عليها ملك قشتالة فس سنة ٦٤١هـ.

وكانت "مرسية" بلد العلم والأدب، وقد وفد من علمائها عدد كبير إلى المشرق، وعلى الأخص مصر، ومن بينهم أبو عبد الله محمد بن المرسي المتخصص الفقه والكلام، ومنها الشيخ الزاهد أبو العباس المرسي تلميذ الشاذلي[٤].

---

(٤) راجع دائرة معارف الشعب مادة أندلس.

ومنهم الفقيه الفصيح الجليل العالم الورع عبد الحق ابن سبعين الذي ذاع صيته وكثر أشياعه وتعددت مصنفاته[٥].

ومن هذه المدن "أشبيليه".

وتقع هذه المدينة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير قرب مصبه، في خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحريا في جنوب أسبانيا، ويتميز هذا النهر بشدة صعود المد فيه، حتى انه ليصل إلى اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر، وفيه يقول الشاعر ابن سفر:

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب في شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزا فضم من الحياء ازاره[٦]

وتتوسط "أشبيلية" سهلا فسيحا، وكانت زمن المسلمين مدينة عامرة، بها أسواق قائمة وتجاوزات رائجة، وتمتعت – ولا سيما في عهد بني أمية – بازدهار شامل في حياتها، وأقام فيها الأمراء المنشآت العظيمة، وشهدت على تعاقب الولاة تقدما لم تشهده من قبل لا في عصر الرومان، ولا في عصر القوط، ووصل بها الأمر إلى أن أصبحت أعظم مدن أسبانيا الإسلامية بعد أن تخلت لها قرطبة عن الزعامة.

---

(٥) نفح الطيب ٧٠ ص١٨٨.

(٦) المرجع السابق حـ١ ص٣٠٨.

وقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع "أشبيلية" وما كانت تنفرد به دون غيرها من الحواضر الأندلسية، وكانت – على حد تعبيرهم – عروس بلاد الأندلس وقاعدتها، وبرع في ظلالها كثير من الأدباء والعلماء والفنانين[٧].

تلك هي الأندلس، وفي هاتين المدينتين منها ولد "الشيخ الأكبر" وعاش الشطر الأول من حياته، في تلك الظلال الباسقة من العلم والعرفان.

وكانت البيئة العربية في ذلك الوقت الذي نشأ فيه "سلطان العارفين" بيئة ممهدة خصبة لازدهار العلوم والمعارف، وأدى التنافس الشديد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين في المشرق والمغرب إلى ظهور كثير من العلماء المبرزين في شتى أنواع العلم والمعرفة، وبخاصة في التصوف الذي امتدت فروعه وزكت أصوله واتسعت معارفه، ووصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه من نمو وازدهار، ودان به كثير من العلماء الأجلاء الذين رسخت أقدامهم ومضوا في طريقهم ينشرون الهدى والنور من حولهم.

كان عصر "ابن عربي" عصرًا ذهبيًا في التصوف، وشهد مشرق كثير من فحوله من أمثال السهروردي البغدادي، والشاذلي.

---

(٧) دائرة معارف الشعب مادة "أندلس".

والدسوقي والبدوي، وعمر بن الفارض، وجلال الدين الرومي، وعفيف الدين التلمساني، وأبي الحسن الضباغ، وأبي العباس المرسي وأبي العباس الخزرجي الأندلسي، وعبد الحق بن سبعين، وأبي مدين المغربي، وأبي الحجاج الأقصري، وكثير غيرهم عمرت بهم البلاد الإسلامية في شرقها وغربها.

وقد نضج التصوف نضجا كبيرا، وخطا على يد أربابه خطوات فساحا، وظهرت فيه الأذواق المختلفة التي تمثل اتجاهات الصوفية في ذلك العصر.

وكان ذلك ثمرة من ثمار النضج الروحي والفكري الذي ظهر في خلال ذلك العصر، والذي أدت إليه حركة المد العلمية الواسعة التي شملت جميع أجزاء الدولة الإسلامية المتعددة الأطراف "وكان حظ الأندلس من العلوم والآداب كبيرا للغاية، فتقدمت تقدما ملوسا منذ العهد الأموي، واشتغل منهم كثيرون في الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية، ونبغوا في الفلسفة والتصوف والنحو والشعر"[٨].

ويوجد مئات من العلماء الأعلام الذين كان لهم أثر مرموق في الرقي الفكري والعقلي والروحي، ذكرتهم كتب التاريخ والطبقات،

---

(٨) دائرة معارف الشعب مادة أندلس ص ١٩٧.

وعلى أيديهم تخرج الآلاف من الطلاب الذين زخرت بهد المدارس والجامعات، وامتلأت بهم المدن، وامتدت بهم آمال الأمة العربية والإسلامية، وارتبطت بهم أوصالها، حيث اتسعت حركة الهجرة بين شرقيها وغربيها.

وقد ترجم "المقرى" في كتابه نفخ الطيب لكثر من هؤلاء الأعلام الذين هاجروا من الأندلس إلى المشرق، ومن بينهم من الصوفية.

وعلى قدر ما كانت ترفل فيه الأندلس من حلل الترف والحضارة والنعمة، مما أدى إلى انصراف كثير من المترفين إلى المتعة واللذة واستغراقهم في اللهو واللعب كان هناك التصوف الذي لعب دورا كبيرا في حياة بعض الأفراد، ووقف يلوح بعصاه ليهذب من ضراوة النفوس ويكبح من جماح الشهوات.

وكان التصوف قد تطور في أطواره المختلفة التي نقلته من مجرد نزعة تقشفية إلى التغلغل في صميم الكون والنفس الإنسانية واكتشاف أعماق الحياة، واصبح التصوف في هذا العصر يمثل ناحيتين هامتين، أحداهما الجانب العملي، ويقصد به المجاهدة والمكابدة وما تدعوان إليه من تهذيب خلقي، وما تكلفانه من سلوك ألوان خاصة في الرياضة الروحية كالصوم والعزلة والسهر والصمت والفكر والسياحة والذكر وغير ذلك.

وثانيهما الجانب النظري الذي تثمره الناحية العملية من معرفة لواجب الوجود وتعبير عما يشاهده العارف وعما يحس به في أثناء سيره في طريقه من أحاسيس القرب أو المشاهدة أو الشوق أو الأنس أو الوجد أو غير ذلك.

واختلفت تعبيرات الصوفية بين هاتين الناحيتين اختلافا أثار كثيرا من النقاش والجدال، وبين مؤيد ومعارض ومدافع ومهاجم، وكونت هذه الحالة حركة فكرية كان لزاما أن تشغل عقول العلماء والمفكرين.

في هذه الظروف نشأ ابن عربي الشيخ الأكبر، الذي أثار أكبر ضجة في تاريخ التصوف، وترك من خلفه ثروة ضخمة من المعارف الصوفية، وكان لآرائه الجريئة صدى عميق ظل إلى وقت طويل يثير ثائرة المعارضين وإعجاب المؤيدين.

نسبه ومولده ونشأته

أسرته:

وُلِدَ ابن عربي في أسرة عريقة تعتز بأصلها العربي السامق. فهو من نسل حاتم بن عبد الله الطائي المتوفي سنة ٥٧٨م، وهو الجواد الفارس المشهور بكرم الأخلاق، وكان مظفرا، إذا قاتل غلب، وإذا أسر أطلق، وإذا غنم أعطى، وإذا سئل أجاب، ضرب المثل بجودة حتى لقد رويت عنه الأخبار، ونسجت حوله القصص في الآداب العربية والفارسية والتركية والهندوستانية، وله ديوان شعر يدور حول الجود والخلق الكريم(٩).

وورث أولاده وأحفاده هذه الصفات منه، واعتزوا بها وحرصوا عليها، وكانت مثار فخر لهم، ولم ينس ابن عربي– وهو شاعر مجيد– التغني بهذه الصفات الكريمة التي ورثه اياها نسبه العظيم، فقال في إحدى قصائده:

إذا فل سيفي لم تفل عزائمي   فلي عزمات شاحذات صوارمي
وإلا فسل عنا القنا هل وفت لنا   وأسيافنا يوما بقدر عزائمي

(٩) نفح الطيب حـ٧ ص١٨٨.

لنـــا الجـــود؛ إذ ســـلالة حـــاتم   وما زال مـذ قلدتـه فـي تمـائمي

وقال في قصيدة أخرى:-

لنـــا همـــة أن الثريـــا لـــدونها   نعم، ولنا فوق السماكين منزل

تقـدمت سـبقا فـي المكـارم والعـلا   وفي كل ما ينكى العدا أنا أول

ولـم ألـف صمصـاما بقـدر عزائمـي   ولو جمعوا الأسياف عزمي أول

كذلك جودي لا يفي الغيث والثرى   إذا كـان أمـوالا بـه حـين أبـذل

أنـا العربـي الحـاتمي أخـو النـدى   لنا في العلا المجد القديم المؤثل

ولأسرة الطائي سابقة في الإسلام جديرة بالتسجيل، وهي أن عديا الطائي بن حاتم يعرف بالجواد ابن الجواد، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة سبع، وأسلم وحسن إسلامه، ونزع له النبي صلى الله عليه وسلم وسادة كانت تحته فألقاها له حتى جلس عليها، ولما ارتدت العرب ثبت عدي وقومه على الإسلام، وكان أول صدقة قدم بها على أبي بكر صدقة عدى وقومه، وشهد فتح المدائن، وشهده كه سيدنا على حروبه، وفقئت عينه يوم الجمل وتوفي سنة ٦٨هـ عن نحو ١٢٠ سنة(١٠).

---

(١٠) نفح الطيب حـ٧ ص٩٢ هامش.

نسبه:

ونسب ابن عربي كما ورد في أكثر من مرجع هو: أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي[١١]. من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدى بن حاتم الفقيه الصوفي المشهور الظاهري[١٢].

وتضيف دائرة المعارف الإسلامية أنه كان يعرف في الأندلس "بابن سراقة" ولعلها استندت في ذلك إلى ما جاء في نفح الطيب نقلا عن كتاب "عنوان الدراية في تاريخ بجاية" ولكن الواقع أن الذي يعرف بابن سراقة ليس هو الشيخ الأكبر، ولكنه الامام محيي الدين أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة، ولد سنة ٥٩٢هـ وله مؤلفات في التصوف، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم، وتوفي سنة ٦٢٢هـ[١٣]، وكان أحد الملازمين لدروس سيدي أبي الحسن الشاذلي في مصر[١٤]. وقد ترجم له صاحب كتاب "المغرب في حلى المغرب" وذكر أنه: أبو بكر محمد بن أبي عبد الله محمد بن سراقة. وأنشد له شعرا[١٥].

---

(١١) دائرة المعارف الإسلامية-دائرة معارف البستاني-شذرات الذهب حـ ٥ ص١٩٠.

(١٢) نفح الطيب حـ ٧ ص٩٢.

(١٣) المصدر السابق ص ١٤٩.

(١٤) أبو الحسن الشاذلي لعبد الحليم محمود ص ٤٣.

(١٥) المغرب في حلى المغرب حـ ٢ ص٣٨٨.

وكـان الشـيخ الأكبـر يطلـق عليـه فـي الأنـدلس: "ابـن العربـي" بالألف واللام، أما في المشرق فكانوا يطلقون عليه "ابن عربي" من غيـر أداة التعريـف. تمييـزا بينـه وبـين القاضـي أبـي بكـر بـن العربـي المعـافري، قاضـي قضـاة "أشـبيلية" وهـو أحـد علمـاء الأنـدلس المشهورين الراحلين إلى المشرق، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة، وتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. قبل مولد الشيخ الأكبر بسبعة عشر عامًا تقريبًا.

مولده:

وقد أجمعت المصادر على أن ابن عربي الشيخ الأكبر ولد يوم الاثنين سابع عشر من رمضان المعظم سنة ستين وخمسمائة هجرية، في مدينة "مرمية" بالأندلس، من أبوين كريمي المحتد، وفي ظل أسرة عريقة غنية مشهورة بالتقوى والصلاح.

أما أبوه علي بن محمد فقد كان رجلا صالحا مواظبا على تلاوة القرآن الكريم، وله مع سورة "يس" صحبة خاصة، ويبدو أنه كان مباركا، بدليل أنه قد تنبأ باليوم الذي سيموت فيه فكان كما تنبأ، ويحدث ابن عربي عن الكرامات التي صاحبت أباه يوم وفاته وعن الاشراق الذي كسا وجهه وغشي جسمه حتى أضاء ما حوله فيقول في كتاب "الفتوحات المكية":- "وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرني بموته، يوم الأربعاء، وكذلك كان، فلما كان يوم موته،

وكان مريضا شديد المرض استوى قاعدا غير مستند، وقال لي: يا ولدي، اليوم يكون الرحيل واللقاء فقلت: كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك في لقائك، ففرح بذلك، وقال لي: جزاك الله يا ولدي عني خيرا، فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه، وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء، لها نور يتلألأ، فشعر بها الوالد، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه، فقبلت يده وودعته وخرجت من عنده وقلت له: أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك، فقال لي: رح ولا تترك أحدا يدخل علي، وجمع أهله وبناته، فلما جاء الظهر جاءني نعيه فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت، وعلى تلك الحالة دفناه، وكان له مشهد عظيم"(١٦).

وأما أمه فاسمها "نور" وهي امرأة صالحة كانت تحثه دائما على ارتياد طريق الصلاح، واتباع سبيل الهدى. ولم تجزع حينما ترك ابنها الدنيا وسلك طريق الزهادة والتقوى. وحينما ألزم نفسه خدمة العارفة بالله "فاطمة بنت المثنى القرطبي" بأشبيلية كانت أمه تزوره عندها، فتقول لها فاطمة: يا نور هذا ولدي وهو أبوك، فبريه ولا

---

(١٦) ابن عربي حياته ومذهبه ترجمة عبد الرحمن بدوي.

تعقيه. فلا تجد في نفسها غضاضة مما تسمع، وكانت تتلقاه بقبول حسن.

أما أخواله فمنهم الأعلام الذين سلكوا طريق التصويف، وبلغوا منه مبلغا عظيما، وقد كان أحدهم وهو "يحيي بن يفان" ملكا على مدينة تلسمان وكان في زمنه رجل فقيه زاهد متبتل، قد انقطع في مسجد يعبد الله فيه.

وبينما كان هذا العابد سائرا في طريقه بين مدينتي تلمسان وأقادير، إذ لقيه "يحيي بن يغان" وقد أحاط به خدمه وحشمه، فسأل عن هذا الزاهد، فقالوا له: هو أبو عبد الله التونسي عابد وقته، فوقف بجواره، وسلم على الشيخ، فرد عليه الشيخ السلام، ثم قال الملك – وكان يرتدي ثيابا فاخرة–للشيخ يا شيخ، هل يجوز لي أن أصلي في هذه الملابس التي أرتديها؟.

فضحك الشيخ، فقال له الملك: مم تضحك؟

فأجاب الشيخ: من سخف عقلك وجهلك بنفسك، مالك تشبيه عندي إلا بالكلب، يتمرغ في دم الجيفة وأكلها وقذارتها، فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول، وأنت وعاء ملئ حراما وتسأل عن الثياب، ومظالم العباد في عنقك!!

فبكى الملك "يحين بن يغان" خال ابن عربي، وخرج عن ملكه من حينه، ولزم خدمة الشيخ، فألزمه الشيخ بأن يحتطب، فكان يحمل الحطب على رأسه ويمضي به إلى السوق ليبيعه، فيقتات منه ويتصدق بالباقي، وظل على ذلك حتى مات ودفن بجوار الشيخ.

وكان الناس إذا جاءوا يقصدون الشيخ للتبرك، ويطلبون منه الدعاء يقول لهم: التمسوا الدعاء من يحيي بن يغان، فإنه ملك وزهد، ولو ابتليت بما ابتلى من الملك ربما لم أزهد(١٧).

وكان من أخواله أيضا "أبو مسلم الخولاني" الذي كان له في الطريق الصوفي مجاهدات شاقة لا يصبر عليها الفحول من الرجال.

أما أعمامه فكان منهم "عبد الله بن محمد" الذي كانت له قدم ثابتة في الطريق ووصل إلى درجة من درجات كبار الصوفية، وهي درجة جلاء البصيرة ومعرفة بواطن الأمور.

هذه عمومته القريبة، أما عمومته البعيدة فقد مر بنا قول "المقرى" الآنف عنه: أنه من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدي ابن حاتم الفقيه الصوفي المشهور.

في هذا الظل الوارف من الصلاح والتقوى نشأ ابن عربي، فكان جديرا بأن يكون ابن هذه البيئة الطيبة الصالحة، حتى إذا اكتمل

---

(١٧) ابن عربي ص ٦.

شبابه اكتملت معه الهالة المشرقة الوضاءة من حوله بزواجه من فتاة تقية صالحة، هي "مريم" ابنة محمد بن عبدون ابن عبد الرحمن البجائي، التي كان لها أثر كبير في دفعه إلى طريق الهدى والنور.

وكان مولد ابن عربي في مدينة "مرسية" وكان يحكمها في ذلك الوقت "محمد بن مردنيش" ولم تلبث جيوش الموحدين أن زحفت إلى الأندلس واستولوا على أغلب مدنها، فأعد لهم "ابن مردنيش" جيشا وخرج لقتالهم، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة، حتى انتهى أمر "ابن مردنيش" إلى الأدبار فهزم في ذي الحجة سنة ٥٦٠ هـ، وابن عربي في ذلك الوقت عمره شهور، وحاصر الموحدون "مرسية" فترة من الزمن ثم أقلعوا عنها، ثم عادوا هجومهم عليها مرة أخرى، وشددوا الحصار، وأخيرا استسلم "بنو مردنيش" آثر الطاعة لأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي" سنة ٥٦٧هـ[١٨].

وقد أجمع المؤرخون على أن "ابن عربي" وُلِدَ في "مرسية" باستثناء "ابن الأبار" فيما نقله عنه صاحب نفح الطيب، من أنه من أهل "المرية"[١٩]، ولكن يبدو أن "المرية" محرفة عن "مرسية" وقد أثبت ذلك فعلا الأستاذ أحمد يوسف نجاتي في هامش الصفحة التي ذكر فيها ذلك.

---

(١٨) دائرة معارف الشعب مادة مرسية ص ٤٨.

(١٩) نفح الطيب حـ ١ ص٩٥.

وكانـت طفولـة ابـن عربـي الأولـى فـي "مرسـية" فـي ظـل ذلـك الصراع الدائر حول المدينة، ولكن ذلك لـم يكـن ليشغل أسرته عن اعداد هـذا الطفـل لمسـتقبله، فـدفعوه إلى من يأخـذ بيـده إلى التهيؤ لحفظ القرآن الكريم.

إِقباله على طلب العلم - شيوخه في طلبه

في سنة ثمان وستين وخمسمائة تحولت الأسرة إلى "أشبيلية" وهناك أقبل "ابن عربي" على التعلم، وبدأ بعلوم القرآن الكريم.

وكان أستاذه في علم القراءات "أبا بكر محمد بن خلف اللخمي الأسبيلي" وهو من أكبر العارفين بالقراءات والعربية، وكان مقدما فيهما، وله مؤلفات نافعة في اللغة والقراءات والتفسير، توفى سنة ٥٨٦هـ.

قرأ "ابن عربي" القرآن الكريم بالسبع على هذا الأستاذ الفاضل، وانتفع في ذلك أيضا بكتاب "الكافي في القراءات السبع" عن طريق ابن مؤلفه: أبي الحسن بن محمد بن شريح الرعيني، الذي كان يحدثه بهذا الكتاب عن أبيه.

وانتفع بهذا الكتاب أيضا عن طريق شيخ آخر هو: أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد القرطبي المعروف بالشراط، وكان عالما بالقراءات وطرقها بصيرا العربية وآدابها، له حظ من قرض الشعر فاضلا زاهدا ورعا، وتوفى سنة ٥٨٦هـ.

وقرأ "ابن عربي" كتاب "التيسير لأبي عمرو الداني" على شيخ جليل هو "أبو بكر محمد بن أبي حميرة" وكان والد هذا الشيخ من

أهل الحفظ والعلم والمعرفة، وكان شديدا في الحق، وتلقى ابنه أبو بكر عنه علومه ومعرفته وفهمه وحذقه.

وكان من شيوخ "ابن عربي" في الحديث والفقه والأدب: أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن زرقون المتوفى سنة ٥٨٦هـ، كان أحد سراة الرجال حافظا للفقه مبرزا فيه، مشهودا له بالبراعة في الأدب والمشاركة في قرض الشعر وحسن التصرف في طرفي النظم والنثر، ولي القضاء، وله مؤلفات نافعة.

ومن شيوخه أيضا: أبو محمد عبد الحق بن الرحمن ابن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي الأشبيلي، وكان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله، عارفا بالرجال موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع أديبا شاعرا، توفى سنة ٥٨١هـ.

كذلك كان من شيوخه في الحديث والفقه: أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيي بن الجد، وكان في وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولا منازع، لا يدانيه أحد في ذلك ولا يجاريه وإليه كانت رياسة بلده والانفراد بها، ثم ورثه عقبه من بعده، وكان فصيحا خطيبا مفوها، وقد جل قدره في "أشبيلية" وكان يعرف بالحافظ لكونه أعجوبة في سرعة ما يحفظه، وبلغ به العلم إلى

مرتبة علية بحيث أن كان يوسف بن عبد المؤمن ينزل له عن فرسه اكراما له. توفى سنة ٥٨٦هـ[٢٠].

ومن شيوخه أيضا "أبو محمد عبد المنعم بم عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي"، وكان له تحقق بالعلوم على تفاريقها، وأخذ منه في كل فن، وكان أعلم أهل الأندلس بمذهب مالك، وهو من أهل بيت عريق في العلم توفى سنة ٥٩٧هـ.

ومن شيوخه "أبو القاسم جمال الدين عبد الصمد بن محمد ابن أبي الفضل الحرستاني" قاضي القضاة، ولد سنة ٥٢٠هـ، وكان فاضلا فقيها شافعا صالحا عابدا عدلا، وتوفى سنة ٦١٤هـ.

وسمع الحديث في "قرطبة" من "أبي القاسم خلف بن عبد الملك ابن مسعود بن بشكوال". وكان من علماء الأندلس، وله التصانيف المفيدة، ولد في ذي الحجة سنة ٤٩٤هـ، وتوفى في رمضان سنة ٥٧٨هـ.

وقرأ ابن عربي كتبا كثيرة في مختلف العلوم والفنون ومن بينها كتب "ابن حزم" حدث عن نفسه قائلا في إحدى رسائله إلى الملك المظفر غازي:

---

(٢٠) المغرب في حلى المغرب حـ١ ص٣٤٢.

ومن شيوخنا الأندلسيين "أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن عبد الله الأشبيلي" رحمه الله تعالى، حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين لي من أسمائها: تلقين المهتدى، والأحكام الكبرى والوسطى والصغرى، وكتاب التهجد، وكتاب العاقبة ونظمه ونثره، وحدثني بكتب الامام "أبي محمد بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه"[٢١].

و"ابن حزم" كان حجة، وإمام وقته، ومن كتبه التي يشير إليها "ابن عربي" ويغلب أنه قرأها: كتاب الإيصال لأفهم الخصال، لجمع شرائط الإسلام في الواجب والحلال والحرام، وموضوعه فقه الحديث، ومنها: الاحكام لأصول الأحكام، والفصل بين الأهداء والنحل، والاجماع ومسائله على أبواب الفقه، ومنها كتاب مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض[٢٢].

عن هؤلاء الشيوخ السابقين وكثير غيرهم تلقى "ابن عربي" علوم القرآن والحديث والفقه والأدب واللغة والأصول وغيرها.

وكان لتوجيهاتهم – لاسيما الأدباء منهم– أثر كبير في صقل موهبته الأدبية والشعرية التي أعان طبعه العربي، واستعداده الموروث من أسرة عريقة في الشعر والأدب ونشأته في هذه البيئة الأندلسية

([٢١]) نفح الطيب حـ ٧ ص٩٩.

([٢٢]) دائرة معارف البستاني مادة "ابن حزم".

ذات الطبيعة الساحرة التي تهذب الوجدان وتثير العاطفة وترقق الشعور وتنمى الخيال.

يقول"أسين بلثيوس":- "ولما بلغ الثامنة من عمره انتقل مع أهله إلى "اشبيلية" بعد أن خضعت "مرسية" لحكم الموحدين، ولابد أن يكون قد تلقى تربية أدبية ودينية كاملة، لأنه في كتبه يشير مرارا عديدة إلى شيوخه في القراءات والتاريخ والأدب والشعر والحديث، وقد أقرأوه في أشبيلية خصوصا الكتب الرئيسية في كل فن"[٢٣].

شغفه بالعلم ومقدرته فيه:

وكان لدى "ابن عربي" استعداد قوى لطلب العلم واقبال شديد على ارتياد موارده وانتهال فيضه، وكان عنده نهم شديد إلى قراءة كل ما يتصل بفنون العلم المختلفة، وهو يحدثنا في كتاب "المحاضرة" عن قراءته لكثير من الكتب في مختلف الفنون: منها كتاب الامتناع والمؤانسة أبي حيان التوحيدي، وكتاب المجالسة للدينوري، وكتاب بهجة الأسرار للإمام ابن جهضة، وكتاب المبتدأ لإسحاق بن بشر، وكتاب النبوة للإمام الحافظ أبي نعيم، وكتاب السيرة لمحمد بن إسحاق وكتاب السيرة لابن هشام، وكتاب صفوة الصفوة لابن الجوزي، وكتاب مسند الشهاب لابن سلامة القضاعي، وكتاب

(٢٣) ابن عربي حياته ومذهبه ص٨.

المسند للأزرقي في مكة تأليف الأزرق بن عمرو القضاعي الأزرقي، وكتاب المسند الكبير لابن حنبل، وكتاب السنن للسجستاني، وكتاب الترمذي وصحيح مسلم وصحيح البخاري وغيرها[٢٤].

وقد أشار هو إلى هذه الكتب وغيرها بعد قوله:- "وكلما سطرته في كتابي هذا فمنه ما شاهدته أو حدثني به من شاهده، ومنه ما نقلته من كتب مشهورة رويتها سماعا أو قراءة أو مداولة أو كتابة مثل..." ثم يحدثنا عقب ذلك عن روايته عن كثير من الشيوخ في مختلف الفروع، مما يشهد به بالحرص الشديد على طلب العلم والدقة في الرواية والتمكن فيها. ويذكر عددا من الشيوخ الذين روى عنهم العلم وانتفع بهم مما يدل على أنه كرس كل وقته وكافة جهده لطلب العلم، ويشهد لذلك الإنتاج الضخم الذي أنتجه في نختلف المعارف.

وقد بدأ استعداده للتعلم مبكرا، ولم يعق هذا الاستعداد ما يصرف مثله في هذه السن المبكرة من دوافع الصبا، والرغبة في مشاركة الرفاق بعض لهوهم الساذج ومتعهم البريئة.

ولقد كانت تغلبه في بعض الأحيان طبيعة سنه، فيقبل على الصيد في السهول المحيطة بأشبيلية المحيطة بأشبيلية ممتطيا صهوة

(٢٤) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار جـ١ ص٥.

جواد يركض به، ولكن ذلك الاقبال لم يلبث أن يفتر سريعا تحت رغبة ملحة كامنة، توحي إليه بوجوب انتهاز الوقت في تحصيل ما لا يمكن تداركه بعد فوات الأوان، وربما كان ذلك تعهدا إليها لهذا الذي يوشك أن يصبح فيما بعد رجلا عارفا بصيرا ربانيا مبارك الخطوات.

وبفضل هذا الاقبال العظيم على الطلب والإفادة أصبح هذا الطالب المجد أستاذا يشار إليه بالبنان، وأصبحت لديه المقدرة الكاملة على المقارنة والاستنباط، وأعانته قرحيته النفاذة على ادراك ما استكن من أسرار العلوم ودقائق الاشارات، ولكنه مع ذلك كان متمسكا بطريقة السلف الذين لم يروا غير الأخذ بالكتاب والحديث والاجماع، فنجده بالائمة على من ينسبه إلى ابن حزم أو غيره من المجتهدين الأئمة، وان كان يكن لابن حزم وغيره من هؤلاء كل اجلال واكبار، ويعترف بقراءة كتبهم وتتلمذه عليها. جاء في شذرات الذهب: "كان "ابن عربي" مجتهدا مطلقا بلا ريب، قال في رائيته:

لقد حرم الرحمن تقليد مالك وأحمد والنعمان والكل فاعذروا

وقال أيضا:

لست ممن يقول: قال ابن حزم   لا ولا أحمـد ولا النعمـان[٢٥]

ويقول أيضًا في ذلك:

نسـبوني إلـى ابـن حـزم وإنـي   لست ممن يقول: قال ابن حزم
لا ولا غيـره فـان مقـالي   قال نص الكتاب ذلك علمي
أو يقـول الرسـول أو أجمـع الخلـق على ما أقـول. ذلـك حكمـي

ويعلق الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل على هذه الأبيات بقوله: "أبو محمد بن حزم الظاهري يأخذ بالنقل وظاهر النصوص ويستكثر من السنن، وعن طريق النقض في النقل وضعف الثقة في الناقلين هاجم ابن حزم الملل الأخرى، ورآها لا تثبت أمام النقد الصحيح، و"ابن عربي" مع اتفاقه مع ابن حزم في الاعتماد على النقل والنصوص لا يرى أن يأخذ بظاهرها وحسب، بل ومعها بواطنها، ولذا فهو يتنصل من اتهام بعض الناس له من أنه مقلد لابن حزم الظاهري، ولم يقلد "ابن عربي" فقيها آخر.. سواء كان من الذين أخذوا بالظاهر، أو جاسوا خلال الكلام وأخذوا بالرأي كالقدرية أو المعتزلة أو الفلاسفة، وانما يعتمد في كل ما يقوله على نصوص الكتاب الكريم وأحاديث الرسول الشريفة واجماع المسلمين، غير واقف عند

---

(٢٥) شذرات الذهب جـ٥ ص١٩٩.

الظاهر ولا شاطح وراء الضلال، ومهما كان تأويل "ابن عربي" لقول من الأقوال، فإنه لم يعتمد علما ولا حكما الا كما ورد عن الله وعن رسوله أو أجمع عليه جمهور المسلمين"[٢٦].

ومما يؤكد ذلك قوله في الفتوحات:- "وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع صلى الله عليه وسلم"[٢٧].

ويعلق ابن العماد على قول ابن عربي: لست ممن يقول قال ابن حزم قائلا: "وهذا صريح بالاجتهاد المطلق، كيف لا؟ وقد قال: عرضت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جميعها عليه، فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة ما قلتها، وعن أحاديث ضعفت من جهتها قلتها، وإذا لم يكن مجتهدا فليس لله مجتهد، ان لا تراه فهذه آثاره"[٢٨].

نفوره من الفلسفة:

تبحر "ابن عربي" في كل العلوم الشرعية واللغوية، وأخذ منها حظه الكامل، ووصل إلى مكانة مرموقة، ولكنه لم يعرف عنه أنه اختلف إلى أحد الفلسفة ليتعلم منه، فقد كان بطبعه ينفر منها، وهو يقص علينا في كتاب الفتوحات قصة لقائه مع فيلسوف الأندلس:

---

(٢٦) مجلة منبر الإسلام: ذو القعدة ١٣٨٦هـ.

(٢٧) الكبريت الأحمر ص٣.

(٢٨) شذرات الذهب جـ٥ ص١٩٩.

"أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي" ومنها نفهم أنه لم يكن يرغب فيما كان يشغل به ابن رشد عقله، فلنستمع إليه يقول: "دخلت يوما بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد، وكان يرغب في لقائي لما سمع، وبلغه ما فتح الله به علي في خلوتي، وكان يظهر التعجب مما سمع، فبعثني والدي إليه في حاجة قصدا منه حتى يجتمع بي، فإنه كان من أصدقائه، وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طر شاربي، فلما دخلت عليه قام من مكانه إلي محبة واعظاما، فعانقني وقال لي: نعم، فقلت له: نعم، فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم اني استشعرت بما أفرحه من ذلك، فقلت له: لا، فانقبض وتغير لونه، وشك فيما عنده، وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الالهي؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر؟

قلت له: نعم، لا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها، فاصفر لونه وأخذ الأفكل[٢٩]. وقعد يحوقل، وعرف ما أشرت به إليه، وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الامام أعني مداوي الكلوم[٣٠].

وطلب من أبي بعد ذلك الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا، هل هو يوافق أو يخالف، فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي،

---

(٢٩) الأفكل على وزن أحمد: الرعدة–قاموس.

(٣٠) مداوى الكلوم لقب أحد الأقطاب الذين تعرف إليهم ابن عربي.

فشكرا لله تعالى الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا، وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة، وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابا، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها، والحمد لله الذي خصني برؤيته.

"ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية، فأقيم لي رحمة من الله في الواقعة في صورة ضرب بيني وبينه فيها حجاب رقيق أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني، وقد شغل بنفسه عني، فقلت: إنه غير مراد لما نحن عليه، فما اجتمعت به حتى درج، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش، ونقل إلى قرطبة وبها قبره، ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تآليفه تعادله من الجانب الآخر، وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير، كاتب السيد أبي سعيد، وصاحبي أبو الحكم عمر بن السراج الناسخ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى ما يعادل الامام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الامام وهذه أعماله، يعني تآليفه، فقال له ابن جبير: يا ولدي، نعم ما نظرت لا فض فوك، فقيدتها عندي موعظة وتذكرة رحمهم الله جميعهم، وما بقى من الجماعة غيري، وقلنا في ذلك:

هـــذا الإمـــام وهـــذه أعمالـــه   يا ليت شعري هل أتت آماله؟[٣١]

فنحن نفهم من قول ابن رشد: إنه في زمان رأى فيه من دخل خطوته جاهلا وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة–وهو يقصد "أبي عربي" بقوله هذا–أن "ابن عربي" حين دخل الخلوة لم يكن على دراية بعلوم الفلسفة التي يعتبرها ابن رشد هي العلوم الجديرة بالاطلاع، ومن لم يطلع عليها فهو جاهل. كما يفهم من قول "ابن عربي" عن ابن رشد انه غر مراد لما نحن عليه عدم رغبة "ابن عربي" في تلقي هذه العلوم التي كان يدرسها ابن رشد.

وكذلك يفهم من حوار الأصدقاء يوم وفاة ابن رشد مدى الرثاء لحالته، وكيف يرثى "ابن عربي" لحالة شخص ويرغب في أن يكون عليها؟

كما نفهم أيضا كراهيته للفلسفة من هذه القصة التي يقصها في كتاب التدبيرات الالهية "رأيت لبعض أهل الكفر في كتاب سماه "المرتبة الفاضلة" رأيته بيد شخص بمرشانة الزيتون، ولم أكن رأيته قبل ذلك، فأخذته من يده وفتحته لأرى ما فيه، فأول شيء وقعت

(٣١) ابن عربي ص١٢.

عيني عليه قوله: وأنا أريد في هذا الفصل أن ننظر كيف نصنع الها في العالم.. فتعجبت من ذلك ورميت الكتاب إلى صاحبه"[٣٢].

فإننا نرى أن "ابن عربي" حكم على ذلك الفيلسوف أنه من أهل الكفر وذلك يبين مدى ما كان يكنه لهذا العلم من احساس، ومع ذلك فإن "ابن عربي" لم يؤثر عنه التزمت والجمود ولكنه كان يناقش قضايا هؤلاء الفلاسفة في هدوء ويرد على ما لم يقتنع بالمنطق.

مكانته في العلم وشهادة العلماء له:

ولقد بعدت همة "ابن عربي" في طلب العلوم وكانت له هزيمته لا تعرف الكلل، وتكبد في سبيل تحصيله كثيرا من المشاق، وكان كالنحلة دائب الانتقال من روض إلى روض، حتى جمع في ذلك ذخيرة شهد له بها القاصي والداني، وسيأتي بيان عن ذلك بعد.

وقد أجازه كثير منهم مثل "ابن عساكر" إمام وقته في علمه ودينه. والذي اشتغل عليه خلق كثير وتخرجوا على يديه وصاروا أئمة فضلاء وكان مسددا في الفتوى–توفى في العاشر من رجب سنة عشرين وستمائة بدمشق.

و"ابن الجوزي" الذي كان علامة عصره في الحديث وصناعة الوعظ، وقد صنف في فنون عدة منها: زاد المسير في علم التفسير.

---

(٣٢) ابن عربي ص٣١.

أربعة أجزاء له، وله في الحديث تصانيف كثيرة توفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

و"الحافظ السلفي" أحد الحفاظ المكثرين رحل في طلب الحديث ودخل ثغر الإسكندرية سنة ٥١١ واقام به وقصده الناس من كل حدب، وبنى له العادل وزير الخليفة الظافر مدرسة بالثغر سنة ٥٤٦ توفى سنة ٥٧٦ بالثغر.

وأجازة هؤلاء الأعلام "لابن عربي" شهادة لها قيمتها، لأنها تدل على مدى ما وصل إليه من مقدرة فائقة وبراعة لا نظير لها، وتفوق لا حد له في سائر العلوم التي برع فيها هؤلاء الأعلام الأفاضل.

سلوكه الطريق الصوفي - الرحلات التي قام بها

كان للبيئة التي نشأ فيها "سلطان العارفين" أثر كبير في اتجاهه الصوفي فقد سبق الإشارة إلى اصلاح أبويه وأعمامه وأخواله، ثم من الله عليه بزوجة صالحة، كانت نعم العون له على ارتياد الطريق إلى الله.

وكان "ابن عربي" قد قلد أعباء وظيفة كاتب في حكومة "أشبيلية"[٣٣]، ويذكر الشعراني أن هذه الوظيفة كانت لدى بعض ملوك المغرب، فيقول: "كان رضي الله عنه–أولا من الموقعين عند بعض ملوك المغرب"[٣٤] ويذكر صاحب نفح الطيب أنه "كتب لبعض الولاة ثم رحل إلى المشرق"[٣٥] ويذكر ابن العماد في شذرات الذهب نقلا عن المناوي أنه"كان الانشاء لبعض ملوك المغرب"[٣٦]".

---

(٣٣) ابن عربي ص ٩.

(٣٤) اليواقيت والجواهر ص ٧.

(٣٥) نفح الطيب جـ ٧ ص ٩٣.

(٣٦) شزرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠.

ولا تعارض بين هذه النصوص في حقيقة الأمر، فقد كانت أشبيلية ومرسية وغيرهما من المدن الأندلسية الشهيرة تحت سيطرة الموحدين ملوك المغرب.

ولكنه سرعان ما ضاق بقيود الوظيفة، وتاق إلى الحرية ليتفرغ لما اختاره لنفسه على هدى من الله من زهادة وتقشف، وقد كان ذلك في حياة أبيه، وساعده على ذلك مرض شديد أصابه فألزمه الفراش، فلما برئ منه كان قد خلصت نفسه من شوائبها كالذهب الذي تهذبه النار، وتهيأ للانصراف كلية إلى حياته الجديدة، ولكن تفرغه الكامل لها لم يتم إلا بعد وفاة أبيه.

وكان في ذلك الوقت فتى في حوالي العشرين من عمره، وكان قد سبق ذلك الانقطاع قيامه ببعض المجاهدات ومن بينها الزام نفسه الخلوة بين الحين والحين، يدل على ذلك المحاورة التي تمت بينه وبن ابن رشد التي أشير إليها سابقا، والتي أراد ابن رشد بواسطتها أن يجعل من "ابن عربي" موضوع دراسة وبحث.

وحبب إلى "ابن عربي" العزلة، فانقطع عن الناس وعاش بين المقابر. يقول الشعراني "ثم إنه طرقه طارق من الله عز وجل فخرج في البراري على وجهه، إلى أن نزل في قبر فمكث فيه مدة ثم

خرج"[٣٧]. ويقول صاح شذرات الذهب: "برز منفردا مؤثرا للتخلي والانعزال عن الناس ما أمكن، حتى أنه لم يكن يجتمع به إلا الأفراد"[٣٨].

ويحدث هو عن نفسه في كتاب الفتوحات قائلا: "ولقد كنت انقطعت في القبور مدة منفردا بنفسي، فبلغني أن شيخنا يوسف ابن خلف الكومي قال: إن فلانا–وسماني–ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى[٣٩]. وقد حدثت محاورة بين هذا الشيخ وبين "ابن عربي" انتهت باعتراف الشيخ بأن يجالس الأموات هو الذي يعيش بين الأحياء لا الذي يعيش بين القبور. وحقا ذلك، فكم كم ميت حي، وكم من حي ميت. ولطالما سمعنا هذا الأثر: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، والقرآن الكريم يقول: "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"[٤٠].

بدأ تحول "ابن عربي" إلى الطريق الصوفي مبكرا، وبدأ يتتلمذ على كتب الصوفية ثم عقد العزم على التعرف إلى رجالهم والبحث عن شيوخهم، وأعانته مرآته الصافية على الانتفاع السريع بكل ما قرأ والإفادة ممن لقى وعرف.

---

(٣٧) اليواقيت والجواهر ص٨.

(٣٨) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠.

(٣٩) ابن عربي ص ١٣.

(٤٠) سورة ق ٢٢.

والمعرفة الصوفية ليس لها سوى مفتاح واحد إن فقده الإنسان حرم، ولو كانت في يده حلقة بها مئات المفاتيح، وهذا المفتاح هو العمل، يصدق ذلك القرآن الكريم "واتقوا الله ويعلمكم الله"(٤١). والأثر الشريف: "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم".

ولقد كان "ابن عربي" عاملا بما يعلم، فتفتحت أمامه مغاليق العلوم، وأعطته ما غمض من أسرارها، وتمكن في وقت وجيز أن يترجم عن مفهومات حيرت الفحول من الرجال، وجعلته كعبة القصاد في الوقت الذي كان هو يشد الرحال نحو كل من يسمع عنه أنه ذاق من هذا الطريق شيئا. وهذا هو التواضع الكريم الذي جعله الله حلية الكمل من الرجال.

ولذلك نراه قد كثرت رحلاته في داخل الأندلس وخارجها، وكلها رحلات لم يكن الهدف منها سوى لقاء الشيوخ وتحصيل العلم واكتساب المعارف وبناء الرجال.

وبالرغم من أن "ابن عربي" وصل إلى منزلة عالية كريمة إلا أنه كان يعترف دائما بأن لك من يلقاه شيخ له، فكان يقول: شيخي فلان، ولقيت شيخي فلان، وجاء لزيارتي شيخي فلان.

---

(٤١) البقرة ٢٨٢.

وشيوخ ابن عربي في الطريق كثيرون، وكل شيخ له مزية خاصة وذوق خاص والطريق الصوفي غاص بالأسرار وملئ بالعقبات، وكل سر له طريق لا يمكن النفاذ إليه إلا بإرشاد يعرفه شيخ ولا يعرفه آخر. فمن أجل هذا لم يأنف ابن عربي من أن يتتلمذ على الشيوخ جميعا، وهذا الذي جعله يغرف من كل البحور، ويفهم كل الإشارات ويترجم بمختلف الأسرار ولا يتلوى عليه أي مسلك ويشهد له العام والخاص.

فمن شيوخه الذين ذكرهم في كتابه الفتوحات "موسى السدراني" ويعده "ابن عربي" من الأبدال، ويذكر أنه قدم إليه خاصة "أشبيلية" ليراه، رغم أنه لم يكن قد بلغ بعد السادسة والعشرين من عمره، وليس ذلك بغريب، فليس التقدم بالسن، فمن معاني كلمة "الشيخ" أنه من بلغ مرتبة أهل الفضل ولو صبيًا.

ومن شيوخه أيضًا "أبو عمران موسى بن عمران المارتلي" وكان منقطع القرين في الورع والزهد والعادة والعزلة، وكان ملازما لمسجده داخل أشبيلية، وكان الملوك يزورونه ولا يلتفت إليهم، وله نثر ونظم في الزهد مدون مشهور، فمن نثره: كل ما يفنى ماله معنى– من خف لسانه وقدمه كثر ندمه – من أعطاك رفده فقد منحك وده – ملك فؤادك من أفادك. ومن نظمه:

إلـــى كـــم أقـــول ولا أفعـــل وكـــم ذا أحـــوم ولا أنـــزل؟

وأزجـــر عينـــي فـــلا ترعـــوى   وأنصـــح نفســـي فـــلا تقبـــل؟

وكـــم ذا تعلـــل لـــي ويحهـــا   بعـــل وســـوف وكـــم تمطـــل؟

وكـــم ذا أؤمـــل طـــول البقـــا   وأغفـــل والمـــوت لا يغفـــل؟

تـوفى سـنة ٦٠٤هـ عـن اثنـين وثمـانين سـنة [٤٢]. وكـان "ابـن عربي" يجل هذا الشيخ كثيرا، ويذكر عنه أنه سيد وقته، ويعترف بأنه هو الذي أرشده إلى كيفية الالهامات الإلهية.

ومـنهم "أبـو الحجـاج يوسـف الشـبربلي" وهـو شـيخ معتقـد لـه كرامات ظاهرة وكان ملازما لتلاوة القرآن.

ومن شيوخه "يوسف الكومي" العالم الورع المجاهد الذي كان يحث أتباعه على لزوم المجاهدة، حتى يمكنهم اجتياز العقبات في طريقهم إلى الله.

ومـنهم "أبـو عبـد الله بـن المجاهـد" و"أبـو عبـد الله قيسـوم" وكلاهمـا مـن الشـيوخ الأجـلاء المـدققين الـذين بلغـوا فـي محاسـبة النفس على الأقوال والأفعال مبلغا كبيرا، وقد ترك كل هؤلاء أثرا في نفس "ابن عربي" نظرا لما تختلف عليه مشاربهم وأذواقهم.

وقـد رسـم هـو علـى ضـوء لقائـه للشـيوخ طريقـه ومذهبـه، وبواسطتهم قد استنار سبيله ووضحت محجته، ومضى في طريقه لا

---

(٤٢) المغرب في حلى المغرب جـ١ ص ٦٠٤.

يلوي على شئ، مضيفا إلى زاده ما يراه نافعا له في رحلته ومعينا له على وعورة الطريق، لذلك نراه يدقق في محاسبة نفسه فلا يكتفي بمحاسبتها على الأقوال والأفعال كما فعل "ابن المجاهد وابن قيسوم" ولكنه يزيد عليهما في التدقيق فيحاسب نفسه على الخواطر، وتلك نهاية الورع، وما أحسب أن وصل إليها أحج إلا من كان في مرتبة الصديقين.

ويقول "أسين بلاثيوس" عن "ابن عربي": "إنه عمل على تكوين روحه منذ سنوات شبابه بالزهد في الشهوات نماذج رائعة في الزهد قدمها زهاد في أشبيلية على رأسهم جميعا يجدر أن نذكر عبد الله المغاوري"[٤٣].

و"أبو محمد عبد الله المغاوري" شيخ جليل له كلام رائع وتوجيهات كريمة منها قوله يوصى أبا الحسن الأشبيلي: "آمرك بخمس وأنهاك عن خمس، آمرك باحتمال أذى الخلق، وادخال الراحة على الاخوان وأن تكون أذنا لا لسانا، والخامس أن تكون مع الناس على نفسك، وأنهاك عن معاشرة النساء وحب الدنيا وحب الرياسة وعن الدعوى وعن الوقوع في رجال الله" فما أجمله من كلام خرج من نفس صافية!

---

(٤٣) ابن عربي ص ١٧.

وما أجدر "ابن عربي" بالانتفاع بمثل هذه التوجيهات وهو الحريص على تحصيل الجيد من القول والنافع من العمل، ليتخذ منهما دليله ومرشده.

ولقى من شيوخه "شعيب بن الحسين الأندلسي الملقب بأبي مدين" وقد دلت "ابن عربي" على لقائه خارقة من خوارقه العديدة[٤٤]، وقد شهد هذا الشيخ لابن عربي ولقبه بسلطان العارفين "وكلام الرجل أدل دليل على مقامه الباطن"[٤٥].

وأبو مدين أحد الصوفية العظام وأصله من أشبيلية، طوف سائحا في الأرض وسكن "بجاية" مدة ثم "تلمسان" وكان من أهل العمل والاجتهاد وكان امام وقته، وقد أقام مدرسة صوفية في مدينة "بجاية" تخرج فيها الكثير من الأجلاء. وقد لقيه "ابن عربي" في أثناء جولاته التي قام بها في بلاد المغرب وكان يطلق عليه "شيخ الشيوخ" وقد خاض أبو مدين كثيرا من الأحوال، وكان في مقام التوكل لا يشق له غبار. توفى سنة ٥٩٠ أو ٥٩٤ على خلاف بتلمسان.

ومن الشيوخ الذين كان لهم تأثير خاص في حياة "ابن عربي" الشيخ أبو العباس العريني. ويذكر أسين بلاثيوس عنه: أنه كان من الشيوخ المتوفرين في أشبيلية على تربية الشباب وإعدادهم ليكونوا

---

(٤٤) طبقات الشعراني جـ ١ ص ١٣٣.

(٤٥) طبقات الشعراني جـ ١ ص ١٦٣.

محل نظر الله في الأرض، فكانوا يجتمعون لديه، ويقرءون من علمه وينتفعون بزهده، وكانت له هيمنة خاصة على مريديه، ويعتبرونه جميعا أباهم وهم أخوة بين يديه، يستشهد لذلك بتفسيره معنى "الأقربون" في قوله تعالى "الأقربون أولى بالمعروف" بقوله: الأقربون هم الأقربون إلى الله لا الأقربون في الرحم. وهذا التفسير ذكره "ابن عربي" في كتابه الفتوحات نقلا عن شيخه العريني.

وتلقى "ابن عربي" عن هذا الشيخ كثيرا من التوجيهات، ونقل عنه كثيرا من المعلومات وربما كانت تحدث بينه وبين شيخه مناقشات في بعض الأحيان، فيحتد فيها "ابن عربي"؛ لأنه لم يكن قد أخذ بعد على ذلك النظام الذي وضعه شيخه العريني لمريديه من وجوب التسليم المطلق للشيخ، فيتدخل "الخضر" حينذاك لرد "ابن عربي" إلى الطريق السوي، وهو وجوب عدم معارضة الشيوخ، وقد ذكر ابن عربي في كتابه الفتوحات هذه الوقائع في أكثر من موضع، نذكر منها هذه الواقعة نقلا عن كتاب ابن عربي: "الخضر صاحب موسى – عليه السلام – أطال الله عمره إلى الآن بخلاف علماء الرسوم لخبر صحيح تأولوه، قد رأيناه مرارا واتفق لنا في شأنه أمر عجيب، وذلك أن شيخنا العباس العريني، جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: هو فلان بن فلان، وسمى لي شخصا أعرفه باسمه وما

رأيته، ولكن رأيت ابن عمته، فتوقفت فيه ولم آخذ بالقبول، أعني قوله فيه، لكوني على بصيرة في أمره، ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذى في باطنه، ولم أشعر بذلك في بداية أمري، فانصرفت عنه إلى منزلي، ولما كنت في الطريق لقيني شخص لا أعرفه، فسلم على ابتداء سلام محب مشفق، وقال لي يا محمد صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان، وسمى لي الشخص الذي ذكره أو العباس العريني.

فقلت له: نعم وعلمت ما أراد، ورجعت من حيني إلى الشيخ لأعرفه بما جرى، فلما دخلت عليه قال لي: يا أبا عبد الله، أأحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى "الخضر" يتعرض إليك ويقول: صدق فلانا فيا ذكره لك؟ ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني فتتوقف؟ فقلت: ان باب التوبة مفتوح، فقال: وقبول التوبة واقع، فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر، ولا شك أني استفهمت الشيخ عنه: أهو هو؟ قال: نعم هو الخضر"(٤٦).

ولا شك في أن ظهور الخضر لابن عربي أمر له أهميته، وهو أن دل على شيء فإنما يدل على قوة مكانته ورفعة منزلته، وعلى أنه سيكون ذا شأن عظيم في الطريق، وإلا لما كان إرشاده إلى وجوب

---

(٤٦) ابن عربي ص ٢٣.

التسليم للشيوخ وعدم منازعتهم على يد الخضر الذي أخفى الله صورته عن الناس لحكمة تدق على الأفهام.

وقد عد بعض المحققين "الخضر" من شيوخ "ابن عربي" فقد كان له معه اجتماع كثير[٤٧]. وانطلق "ابن عربي" في طريقه وقد وضح هدفه، وهو يحاول الانتفاع بتوجيهات شيوخه والإفادة من كل من يلقاه من أهل الطريق – وقد لقي كثيرًا منهم – وكان ديدنه التواضع للجميع وخدمة الرفقاء، وقد تعلم من ذلك علوما جمة، واستفاد فوائد كثيرة، فقد عرف كيف يسوس نفسه وكيف يربي إرادته وكيف يجمع همه وكيف يصبر في الشدة وكيف يزهد عن ملك ويعف عن قدرة وكيف يجود بما عنده ويؤثر غيره على نفسه. ورفع ذلك من همته فرمى بقصده إلى الله، عن طريق الحب يعرفه، أو عن طريق المعرفة يحبه.

ولم يأنف في طريق الصعود إلى الله أن يتعلم من كل من يلقى، صغيرا كان أو كبيرا، ذكرا كان أو انثى، عظيما كان أو حقيرا.

وقد مر بنا كيف أنه خدم امرأة أدرك أنها عارفة بالله اسمها "فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي" ووصل من إعزازها له وانقطاعه لخدمتها أن كانت تدعوه بابنها، وتقول له: أنا أمك الالهية "ونور"

---

(٤٧) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٥٨.

أمك الترابية، وقد مكث معها عامين يخدمها. كما عرف امرأة أخرى مسنة اسمها "ياسمين" وكان يعتبرها من الأواهين، كما صاحب، "أبا يحيي الصناهجي" الضرير وهو من أصحاب الكرامات و"يوسف الأستجي" وكان من الأميين المنقطعين إلى الله، و"أبا عبد الله الشرفي" وكان من أصحاب الخلوات "وصالحا البربري" وكان صوفيا سائحا كثير التجوال. يقول: "كان عندنا بأشبيلية رجل عابد حسن الصوت كثير الاجتهاد سريع الدمعة دائم العبرة كثير الفكرة والتهجد، بت معه ليال عدة، فلم يكن يفتر، فربما أسمعه في بعض الأحايين ينشد بصوت غرد، ودموعه تنحدر على خديه:

قطع الليل رجال ورجال وصلوه
رقدوا فيه أناس وأناس سهروه
لا يميلون إلى النوم ولا يستعذبوه
فكأن النوم شيء لم يكونوا يعرفوه[٤٨]

من هؤلاء جميعًا تلقن "ابن عربي" فن الحكمة الصوفية، وتلقى دروس الطريق وآدابها وكون لنفسه شخصيته الفذة التي أشرقت في الميدان الصوفي، وكان لها ذلك الإنتاج الغزير الوافر الذي لا يكون

(٤٨) محاضرة الأبرار جـ ٢ ص ٢٣.

إلا لمن عمر الله أوقاتهم وبارك فيها. فكانت أيامهم الهية وموفورة الجنى مباركة الثمرات.

رحلاته في داخل الأندلس وفي بلاد المغرب:

وبدأ "ابن عربي" مرحلة جديدة من حياته، بدأ يسيح في البلاد توقا إلى إرواء ظمئه إلى المعرفة، وقد تعلم من تجاربه أن المعرفة بر لا ساحل له، إذ كلما ازداد الإنسان منها شربا ازداد ظمأ.

و"ابن عربي" شأنه شأن الراسخين من رجال التصوف، فقد تصوف عن علم بعد أن تبحر في علوم الشريعة وشهد له فيها كثير من أعلام الفقه والحديث والتفسير واللغة، وهذه منزلة كفيلة وحدها أن ترفع من قدره بين أقدار الرجال، ولكن ذلك وحده لم يكن كافيا لإرضاء طموحه؛ فقد كانت همته أبعد من ذلك، وكان مثله كمثل حجة الإسلام الغزالي، الذي سلك طريق التصوف بعد أن أروى ظمأه من كافة العلوم الأخرى مع فارق يسير، يظهر في غزارة انتاج "ابن عربي" في علوم التصوف، وغزارة انتاج الغزالي في العلوم الأخرى. والسبب راجع إلى تكبير "ابن عربي" في ارتياد الطريق الصوفي، أما الغزالي فلم يتصوف إلا بعد أن أفنى زهرة شبابه في العلوم الظاهرية.

والسياحة عنصر هام من عناصر الطريق الصوفي، فعن طريقها يربى المرء إرادته، ويهذب نفسه، ويصحح عزمه، ويوثق صلته بالله،

ويقهر دواعي نفسه التي يولدها الركون إلى الاستقرار، وفي السياحة إعانة على الفكر وحث على المعرفة واكساب للتجربة وأنس بالله والتجاء إليه واعتصام به، لذلك لا نكاد نجد صوفيا إلا وله سياحاته المتعددة ورحلاته المختلفة.

بدأ "ابن عربي" رحلاته في داخل بلاد الأندلس وفي بلاد المغرب العربي، وكانت رغبته في المعرفة رائدة، وكان لا يكاد يخلو بلد من البلاد التي رحل إليها من شيخ فاضل أو عالم جليل. وكان يتعلم من كل رحلة علما جديدا، وكان يقيد كل ما يعن له من فوائد وفيوضات ومعارف.

بدأ رحلاته بزيارة مدينة "مورور" قبل سنة ٥٩٠هـ وهناك التقى بشيخ صوفي عظيم اسمه "أبو محمد المروري" وكان عقده التوكل، وكانت له معه صحبة جميلة أثمرت ثمارا يانعة وفوائد رائعة.

ورحل إلى مدينة "الزهراء" ثم إلى "قرطبة" ثم ارتد إلى "أشبيلية" ولقيه بها كثير من الشيوخ الذين تسامعوا بعلو كعبه في الطريق الصوفي، فقصدوا إليه طلبا للتعرف به والإفادة من علمه وخبرته.

ولم يلبث "ابن عربي" أن انطلق إلى خارج الأندلس ميمما شطر المغرب العربي، فذهب إلى "تونس" في حوالي سنة ٥٩٠هـ، ولكنه لم يطل إقامته بها فقد عاد إلى "أشبيلية" في نفس العام. وقد أفاد

من رحلته هذه إفادة كبرى، فقد بقى في تونس صوفيا كبيرا اسمه "أبو محمد عبد العزيز" الذي توطدت الصداقة بينه وبين "ابن عربي" كما لقى صوفيا آخر هو الشيخ "جراجابن خميس الكتاني" من سادات القوم.

ورجع إلى "أشبيلية" عن طريق محاذاته للشاطئ، فمر على تلمسان، وزار قبر خاله "يحيي بن يغان" الذي سبقت الإشارة إليه.

وفي العام التالي سافر إلى "فاس" ثم عاد إلى "أشبيلية" مرة أخرى، وفي عام ٥٩٣هـ ارتد إلى "فاس" وأقام بها فترة عاكفا على العبادة والمجاهدة وملاقاة الشيوخ الأجلاء من الصوفية، أمثال الشيخ "أبي عبد الله محمد بن قاسم" إمام مسجد الأزهر "بفاس" وكان عالما جليلا، وله مصنفات مشهورة من بينها كتاب: المستفاد في ذكر الصالحين من العباد، وقد استمع "ابن عربي" إلى هذا الكتاب من مؤلفاته.

وقد تتلمذ على "ابن عربي" كثيرون في "فاس" وكان يلتقي بهم في مكانه المختار "بستان بن حيون" يستمعون إلى محاضراته الصوفية التي كان يلقيها عليهم.

ثم ذهب إلى "سبتة" والتقى هناك ببعض الصالحين، وكان ذلك في طريق عودته إلى الأندلس سنة ٥٩٤هـ، وهو يريد عبور مضيق جبل طارق إليها.

وفي "غرناطة" التقى بشيخ جليل هو "أبو محمد عبد الله الشكاز" ويصفه "ابن عربي" بأنه من أكبر من لقيهم في هذا الطريق، ولم ير مثله في الاجتهاد، وكان ذلك اللقاء في صدر سنة ٥٩٥هـ.

وفي العام نفسه توجه إلى مسقط رأسه "مرسية" ومنها توجه إلى "المرية" التي كانت مركزا هاما من مراكز التصوف في الأندلس، ويبدو أن "ابن عربي" قد أقام فيها فترة طويلة يعكف على العبادة والتأليف، ويلتقي بصديقه الصوفي "أبي محمد عبد الله الغزالي" تلميذ الشيخ "أبي العباس بن العريف" أحد أعلام التصوف ومؤلفيهم، ومن الكتب التي ألفها "ابن عربي" في المرية كتاب "مواقع النجوم" وهو من الكتب الهامة.

ولم يلبث في عام ٥٩٧هـ أن اتجه إلى المغرب مرة أخرى، والتقى في "مراكش" بشيخ زاهد من شيوخ التصوف اسمه "أبو العباس السبتي" ومن هناك انتقل إلى "فاس" بناء على أمر إلهي صدر إليه ليصطحب من هناك شخصا اسمه "محمد الحصار" إلى المشرق.

هذه هي الرحلات التي قام بها "ابن عربي" في داخل حدود الأندلس والمغرب والتي بدأت برحلته إلى "مورور" قبل سنة ٥٩٠هـ بقليل وانتهت برحلته إلى "مراكش وفاس" في عام ٥٩٧هـ.

رحلاته إلى المشرق:

بدأ "ابن عربي" رحلته الكبرى إلى المشرق سنة ٥٩٨هـ كما تقول المصادر. وتختلف وجهات النظر حول أسباب هذه الرحلة، فبعضهم يرجعها إلى أسباب سياسية تعود إلى ما ساد البلاد في المغرب من فتن واضطراب في ذلك الحين، بسبب أفول شمس الموحدين. يقول الدكتور جودت الركابي: "ولما اضمحل شأن الموحدين وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس في أوائل القرن السابع الهجري، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية.. غادر الأندلس في تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير وآثروا العمل في جو أكثر استقرارا وطمأنينة مثل الشيخ محيي الدين بن العربي شيخ المتصوفين الشهير وابن البيطار المالقي"[٤٩].

ويرى صاحب كتاب "الشعر الأندلسي" أن السبب في هجرة كثير من العلماء والشعراء ومنهم "ابن عربي" يرجع إلى اضمحلال

---

(٤٩) الشعر الأندلسي لاميلوغومس ترجمة حسين مؤنس ص ٣٦.

الأندلس الإسلامي تحت وطأة الاسترداد التي شاعت في ذلك الوقت[٥٠].

ولكن يبدو أن "ابن عربي" لم يكن مختارا في القيام بهذه الرحلة، ولكنها كانت توجيها إلهيا، وليس ذلك بغريب، فإن من صفت مرآتهم وارتفعت أحوالهم أصبحت حركاتهم وسكناتهم لا تصدر إلا بناء على توجيه إلهي يدركونه بأرواحهم وأذواقهم، فقد تخلوا عن حظوظهم البشرية، وارتقوا إلى مستوى يجعلهم ربانيين يدخلون في نطاق الأثر القدسي: عبدي أطعني أجعلك ربانيا، والرباني هو الذي يذكره القرآن الكريم بقوله: "ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون"[٥١].

رأى رؤيا في "مراكش" يلقى إليه فيها الأمر بالتوجه إلى مدينة "فاس" ومن هناك يصطحب شخصا اسمه "محمد الحصار" إلى المشرق. ويستجيب ابن عربي لأمر الرؤيا ويلتقي بالحصار الذي يخبره بأنه رأى مثل هذه الرؤيا، ويتجهان معا نحو "تلمسان".

أما الرؤيا العجيبة التي تكشف عن مستقبل "ابن عربي" وعلو منزلته التي رآها في "بجاية" في العام نفسه، وهذه الرؤيا يقصها علينا نفح الطيب على لسان "ابن عربي" "رأيت ليلة أني أنكحت نجوم

---

(٥٠) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي ص ٥٧.

(٥١) آل عمران ٧٩.

السماء كلها، فما بقى نجم إلا أنكحته بلذة عظيمة روحانية، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف (وفي نسخة أعطيت البدور) فنكحتها ثم عرضت رؤياي هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها، وقلت للذي عرضتها عليه: لا تذكرني، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال: هذا هو البحر الذي لا يدرك قعره، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب مالا يكون فيه أحد من أهل زمانه، ثم سكت ساعة وقال: إن كان صاحب هذه الرؤيا في المدينة، فهو ذاك الشاب الأندلسي الذي وصل إليها"[٥٢].

وبدأت رحلته الكبرى إلى المشرق في العام التالي ٥٩٨هـ وتوقف في "تونس" فترة طويلة بلغت حوالي تسعة شهور، استأنف بعدها السفر قاصدا مكة المكرمة، ومر في طريقه "بمصر"، ولكن إقامته لم تطل بها في هذه المرة، وفي "مصر" فقد صاحبه الذي أمر باصطحابه، فقد مات ودفن بها، وواصل "ابن عربي" رحلته إلى مكة وحيدًا.

وكانت شهرته قد سبقته إلى هناك، وتوافد عليه الأولياء والعلماء من كل فج يطلبون رؤيته والإفادة من علمه وفضله ومعرفته.

---

(٥٢) نفح الطيب جـ ٧ص ١٥٠.

وتوثقت الصلة بينه وبين "مكين أبي شجاع زاهد ابن رستم بن أبي الرجا الأصفهاني" أمام مقام إبراهيم. ولهذا الشيخ أخت عالمة مسنة أطلق عليها "ابن عربي" لقب(شيخة الحجاز وفخر النساء) وله ابنة من أرباب الأحوال والمقامات. جمعت بين الحسنين الظاهري والمعنوي، ووصفها بأنها من العابدات العالمات السائحات الزاهدات، وأطلق عليها لقب (شيخة الحرمين ومربية البلد الأمين) أما اسمها فهو "النظام".

وكانت هذه الفتاة آية من آيات الله في العلم والفهم والإبانة، وكان من الطبيعي أن تدور مناقشات علمية صوفية بين "ابن عربي" وبين أفراد هذه الأسرة الكريمة. ويعجب بهذه الفتاة التي وصلت في المعرفة حدا كبيرا، وكانت مصدر إلهام أوحى له بديوان "ترجمان الأشواق" الذي نسج فيه قصائده الرمزية على طريقة الصوفية التي يتغزلون فيها بإنسان حي، ولا يقصدون من ورائه سوى الإشارة إلى معان علوية دقيقة، ثم لم يلبث أن وضع شرحا لذلك الديوان خوفا من أن سبق إلى ذهن أحد فهم خاطئ لا يتناسب وجلال هذه المقطوعات الصوفية الرائعة.

وأقام "بالطائف" قريبا من "مكة" فترة من الوقت وعاد إلى مكة، ولقى بها بعض الصوفية، والتقت روحه مع روح بعض الذين فارقوا الحياة الدنيا من الأولياء والصالحين والصديقين.

وفي عام ٦٠١هـ رحل إلى "بغداد"، ولكنه لم يقم بها سوى اثنى عشر يوما استأنف بعدها السفر إلى "الموصل" للقاء شيخ من شيوخ الصوفية اسمه "علي بن الله بن جامع" وكانت لهذا الشيخ روح خاصة وتعلق شديد بالخضر.

واتجه "ابن عربي" صوب "مصر" في سنة ٦٠٣هـ حيث أقام هناك في صحبة بعض الصالحين، يعمرون أوقاتهم بالعبادة والطاعات في أحد البيوت "بزقاق القناديل" بالقاهرة، وكان ذلك في خلافة الملك العادل، وقد تعرض لمحنة سنعرض لها فيما بعد.

ومن القاهرة توجه إلى "الإسكندرية" حيث لم يقم فيها طويلا، ثم غادرها إلى مكة.

ويذكر الدكتور علي صافي حسين أن "ابن عربي" التقى" "بأبي الحسن الصباغ" في أرض الصعيد بمصر، في أثناء ذهابه إلى مكة، وحضر مجالسه، و"الصباغ" شاعر صوفي مشهور، ولكن شهرته لم تصل إلى شهرة غيره ممن جاوزوا مواطنهم الأصلية وساحوا في البلاد، واسمه "علي بن أحمد بن إسماعيل ابن يوسف" وكنيته: أبو الحسن الصباغ وأصله من مدينة "قوص" وتوفى سنة ٦١٣هـ، واشتهر بالزهد والورع والعمق في التصوف، وأنه كان من خير شيوخ التصوف تربية، وأستاذه الشيخ "عبد الرحيم القناوي" أكبر رجال

التصوف شهرة وأعظمهم قدرا وأبعدهم عينا في القرن السادس الهجري[٥٣].

والتقى في مصر أيضا بسلطان العاشقين "ابن الفارض" على رأي، وسيأتي حديث عن ذلك بعد.

وأقام الشيخ الأكبر في"مكة" عقب رحيله من مصر فترة لم تطل، فسرعان ما أخذ أهبته، بناء على التوجيه الروحي إلى مواصلة السياحة، فرحل إلى آسيا الصغرى وحط رحاله في "قونية" سنة ٦٠٧، وكانت "قونية" عاصمة الإقليم الخاضع للمسلمين في الدولة البيزنطية، واستقبل هناك استقبالا حافلا، وخرج الملك بنفسه لاستقباله احتراما له وقياما بواجب الضيافة، وأهداه دارا تقدر المصادر قيمتها بمائة ألف قطعة من الفضة، ولكنه تصدق بها.

وربى في "قونية" كثيرا من المريدين، على رأس القائمة منهم "صدر الدين القونوي" الذي كان من أحب تلاميذه إليه، والذي كان له فضل كبير في تيسير تلقي علوم أستاذه للمتعلمين، وفي حمل لواء الدفاع عنه ضد المهاجمين والناقدين.

ولم يستقر في "قونية" طويلا، فقد واصل تجواله في آسيا الصغرى، واستمر في هذه الرحلة ما يقرب من عام، مر في خلاله

(٥٣) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ١٢٠. الدكتور صافي حسين.

بكثير من المدن الهامة في الأناضول مثل "قيصرية" و"ملطية" و"سيواس" و"أرزن الروم" وقد كانت آسيا الصغرى تطلق على "أرمينية" و"تركيا والأناضول".

ثم لم يلبث أن دخل "العراق" فزار "حران" في نفس العام يصحبه في هذه الرحلات بعض إخوانه من أهل الطريق، فيأنسون في سياحاتهم أشد ما يكون الأنس، وينعمون بما يتلقونه من فيض إلهي ومدد روحي، ولقد أشار "الشيخ الأكبر" في كتابه "الفتوحات" إلى هذه الرحلة بقوله يمجد أحد إخوانه الذي سره منه حسن بره بأمه وعنايته بها: "أعرف ذلك الشخص بعينه وصحبته وكان يعظمني ويرى لي كثيرا، واجتمعت به في "دمشق" وفي "سيواس" وفي "ملطية" وفي "قيصرية"، وخدمني مرة، وكانت له والده كان بارا بها، واجتمعت به في "حران" في خدمة والدته، فما رأيت من يبر أمه مثله، وكان ذا مال، ولى سنون فقدته من دمشق، فما أدرى هل عاش أو مات"[٥٤].

وفي عام ٦٠٨ التقى "بالشهاب السهروردي" في بغداد "حين رحل إليها بعد انتهاء رحلته في "آسيا الصغرى" مارا "بدنيسر" في ديار بكر، وشاهد ماء الفرات وقد جمد تحت برد الشتاء القارس في أقصى الشمال حتى عاد "أرضا تمشي عليه القوافل والناس والدواب، والماء تحت ذلك الجليد حار"[١].

---

(٥٤) ابن عربي ص ٦٨.

و"السهروردي" كان في ذلك الوقت شيخ الصوفية في "بغداد"، وقد وصل في التصوف إلى منزلة لا تدانيها منزلة، ولذلك كان حرص "ابن عربي" على لقائه شديدا.

والصوفية لهم تقاليد خاصة في مقابلاتهم، وهي تختلف من شخصية إلى أخرى، ولكنها تقاليد لها احترامها، فمن تقاليد بعضهم في اللقاء الصمت، ولكنه صمت أبلغ من الكلام. وهذا ما حدث بين "ابن عربي" و"السهروردي" حين تقابلا، وكان بينهما صمت باللسان، ولكن كان هناك تخاطب بالجنان، وخرست الألفاظ وتحدثت اللحاظ، ومكثا هكذا مدة طويلة، وانصرف كل منهما دون أن ينبس ببنت شفة. وحين سئل "ابن عربي" عن "السهروردي" بعد ذلك أجاب بأنه: مملوء سنة من فرقه إلى قدنه. ولما سئل "السهروردي": ما تقول في "ابن عربي"؟ قال: انه بحر الحقائق(٥٥).

و"السهروردي" هو شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن عيد الله بن عمومية "محمد" السهروردي كان إمام وقته لسانا وحالا، ولد سنة ٥٣٩هـ وتوفى "ببغداد" سنة ٦٣٢هـ ومن شعره الذي يدل على صفاء روحه قوله على طريقة الرمز بالخمر:

لا تسقني وحدي فما عودتني   أني أشح بها على جلاسي

(٥٥) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٦.

أنــت الكــريم ولا يليــق تكرمــا   أن يصــبر النــدماء دون الكــاس

وارتفعت منزلة "ابن عربي" في "بغداد" ارتفاعا عظيما، وكثر التلاميذ من حوله، وتطايرت شهرته إلى كل مكان، ولعله وجد في "بغداد" أنسا روحيا جعله يركن إلى الاستقرار فيها فترة من الزمن، قبل أن يتركها عائدا إلى "مكة" في سنة ٦١١هـ.

ولم يقم في "مكة" طويلا، ففي رمضان سنة ٦١٢هـ سافر إلى "قونية" مرة أخرى، ثم تركها إلى "حلب" في السنة التي تليها، وصادف لدى أميرها تكريما عظيما جعله مقصد أصحاب الحاجات والمظالم.

وسافر إلى "حمص" حيث وجد سلطانها له لا يقل عن تكريم غيره من الملوك والأمراء الذين سعدوا بلقاء "ابن عربي" في ممالكهم، وأراد "أسد الدين شيركوه" سلطان "حمص" أن يظفر بإبقائه عنده نهائيا، بأن يجعله يتخذ من "حمص" دار إقامة له، فأمر له بعطاء يومي يقدر بمائة درهم، ولكن كيف يقبل العصفور الطليق البقاء في قفص ولو كان من ذهب؟

ولو كان "ابن عربي" هدفه الدنيا وطلب الأمان لوجد ضالته في كل مكان ذهب إليه وحل به، ولكنه كان قد ملك عنان الزهد، وانصرف بكليته عن الدنيا التي نظر إليها من وجهة نظر القرآن

الكريم حيث يقول: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم..» (٥٦) فلم يلبث أن انطلق كعادته محلقا في فضاء الكون الواسع تصرفه القدرة حسبما تريد، ثم غادرها سائحا فمر "بملطية" وهناك ولد له غلام في رمضان سنة ٦١٨هـ.

ولكن هذه الحياة المضنية والتجوال المستمر والجهد المتواصل، في ظل نظام صارم من الزهد والتقشف وملازمة العبادة والسهر كان لكل ذلك أثر كبير في توجه الشيخ الأكبر إلى "دمشق" ليستقر نهائيا بها منذ سنة ٦٢٠هـ. حتى وافته منيته المحتومة، فلبي نداء ربه الكريم وسعد بجواره هنيئا في سنة ٦٣٨هـ.

وقد كان اختياره "دمشق" لتكون مقرا نهائيا له اختيار مبنيا على هدى من توجيه الرسول الكريم–صلوات الله عليه وسلامه–الذي ثبت عنه أنه قال: عليكم بالشام؛ فإنه خيرة الله من أرضه وإليها يجتبي خيرته من عباده(٥٧).

وفي دمشق بشره النبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق أمنيته في إخراج "فصوص الحكم" الذي يقول في مقدمته: "..رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها في العشر الأخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده صلى الله عليه

(٥٦) سورة الحديد ٢٠.

(٥٧) ابن عربي ص ٨٥ والعبارة منقولة من الفتوحات جـ ٤ ص ٤٦٩.

وسلم كتاب، وقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم، خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا"[٥٨].

حياة حافلة:

على أن استقرار الشيخ الأكبر في "دمشق" لم يكن يعني خلوده إلى الراحة فقد ظل عاكفا على مجاهداته في العبادة وتآليفه في علوم التصوف حتى آخر نفس من حياته، وبذلك يمكن أن ندرك أن حياة "ابن عربي" كانت حافلة بجلائل الأعمال منذ الأيام الأولى حتى الأيام الأخيرة منها.

لقد كانت هذه الحياة سلسلة متواصلة الحلقات من الرحلات التي لم تكد تنتهي واحدة منها حتى تبدأ أخرى، ولم تكن هذه الرحلات إلا هادفة دائما إلى تحقيق أغراض كريمة، وفي مقدمتها تحصيل المعارف أو لقاء الشيوخ أو تربية المريدين، وفي أثناء ذلك كانت تظهر له مؤلفات نافعة تنم عن عبقرية فريدة في نوعها.

وإذا تتبعنا خطوات سياحته يمكن أن نقف على أحداث هامة في حياته ارتبطت بهذه السياحات ارتباط الأسباب بمسبباتها. ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

---

(٥٨) شرح القاشاني على فصوص الحكم ص ١٠.

١- كانت رحلته إلى مكة في فتراتها المتعاقبة موحية له بتأليف كتب من أهم كتبه التي كان لها دوي هائل في الأوساط العلمية والصوفية والأدبية.منها "ترجمان الأشواق" الذي ألفه في سنة ٥٩٨هـ، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية عنه ما يأتي: "وتعرف "ابن عربي" أثناء أقامته بمكة عام ٥٩٨هـ بامرأة عالمة من تلك المدينة، ولما عاد إلى مكة عام ٦١١هـ نظم مجموعة صغيرة من الأشعار الغزلية أشاد فيها بعلم هذه المرأة وجمالها الفتان وما كان بينه وبينها من حب، وفي العام التالي رأى أنه من المفيد أن يتبع أشعاره بشرح صوفي، وقد نشر هذه الأشعار وشرحها وترجمتها إلى الانجليزية نيكلسون"[٥٩].

ولكن الحقيقة أن هذه القصائد ألفت في عام ٥٩٨هـ، وليس في عام ٦١١هـ، وأن الشرح هو الذي كان في عام ٦١١هـ يذكر ذلك "ابن عربي" نفسه في مقدمة "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق" حيث يقول: "لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء.. ولم أر فيهم مع فضلهم مثل الشيخ العالم الامام بمقام إبراهيم عليه السلام نزيل مكة مكين الدين أبي شجاع.. وكان لهذا الشيخ رضي الله عنه بنت عزراء طفيلة هيفاء تقيد النظر وتزين المحاضر وتحير المناظر تسمى "بالنظام" من

---

(٥٩) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن عربي جـ١.

العابدات العالمات السائحات الزاهدات شيخة الحرمين.. فراعينا في صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمة والوالد فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد"[٦٠].

وقد أثبت ذلك "آسين بلاثيوس" في كتابه "ابن عربي" حيث يقول: "إنه في نفس السنة سنة ٥٩٨ بلغ الغاية من رحلته، إذ بلغ مكة وسرعان ما ذاع صيته في هذه المدينة المقدسة، وبدأ العلماء والصالحون يتوددون إليه، ومن بين هؤلاء الامام الموكل بمقام إبراهيم واسمه "أبو شجاع" الذي انعقدت بينه وبين "ابن عربي" مودة وثيقة، وكانت لهذا الامام بنت ذات جمال، فأوحت إلى ابن عربي بموضوع كتاب من أشهر كتبه هو ترجمان الأشواق. ثم يقول: نراه في سنة ٦١١هـ لا يزال في مكة عاكفا على عبادته المعتادة في الكعبة ويكتب شرحه على ترجمان الأشواق"[٦١].

ولسنا بصدد الدفاع عن "ابن عربي" في قصائده تلك التي أثارت حوله ثائرة الفقهاء والمتشككين، فإن حياة الشيخ الأكبر نفسها تضعه فوق مستوى أي شبهة من الشبهات وتدافع عنه، والمنهج السلوكي الذي اختاره لنفسه قد جعله زاهدا في كل متعة من متع الحياة رخصت أو غلت، وليس من المستساغ أن يقبل هذا

---

(٦٠) ذخائر الاعلاق في شرح ترجمان الأشواق ص ٤.

(٦١) ابن عربي ص ٥٧.

السائح الرامي بقصده إلى الله أن يتغزل غزلا حسيا في فتاة كان هو في ضيافتها وضيافة أبيها، فإن لم يتناف هذا مع صلاحه وصلاحها فإنه يتنافى مع طبيعته كعربي جواد شهم فتى ينتسب إلى أرقى أرومة من أرومات العرب مجدا واباء وشهامة، وهي أرومة طيئ.

وإن هذه الخواطر التي حاكتها أخيلة المهاجمين هي التي جعلته يسارع في تأليف شرح لهذه القصائد الصوفية الغزلية، التي نحا منحى الرمز الصوفي الذي دأب الصوفية على استعماله منذ أن تطور التصوف إلى أذواق ومواجيد وانطلق الصوفية بعواطفهم نحو الله، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصرحوا بذلك فرمزوا عن حبهم لله بالغزل الحسي ضنا بأسرارهم وحفاظا على معانيهم، ولذلك نرى ابن عربي يقول: «وقد شرحنا من ذلك نظمنا لنا بمكة سميناه ترجمان الأشواق وشرحناه في كتاب سميناه الذخائر والأعلاق بسبب اعتراض بعض فقهاء حلب علينا، في كوننا ذكرنا أن جميع ما نظمناه في هذا الترجمان إنما المراد به معارف إلهية وأمثالها، فقال: إنما فعل ذلك لكونه منسوبا إلى الدين، فما أراد أن ينسب إليه مثل هذا الغزل والتشبيب، فجزاه لهذه المقالة، فإنها حركت دواعينا إلى الشرح فانتفع به الناس، فأبدينا له ولأمثاله صدق ما نويناه وما ادعيناه. فلما وقف على شرحه تاب إلى الله من ذلك ورجع»[٦٢].

---

(٦٢) ابن عربي ص ٧٥.

ولكن الدكتور زكي مبارك يتابع دائرة المعارف الإسلامية في فهمها عن ابن عربي من أنه يقصد الغزل الحسي، وذلك في كتابه التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ويقول: إنه حين أراد أن يوجه هذه القصائد وجهة صوفية ارتكب كثيرا من التعسف، وهذا القول له خطورته، فابن عربي مصدق في قوله، ووقائع حياته تؤيده يقول الأستاذ محمد إبراهيم الجيوشي: «ومن البين لكل من له صحبة في الشعر الصوفي أنه يتعذر كثيرا على دراسة التمييز بين هذا الضرب من الشعر وبين الشعر الغزلي، هل هذا قيل في معشوقة من البشر أو منشودة من السموات؟ حتى أن ابن عربي اضطر إلى كتابة شرح لتوضيح الغرض من أشعاره ولإزالة ما علق بأذهان من أنها قيلت تشبيبا بامرأة»[٦٣].

ولو صح قول الدكتور زكي مبارك عن ابن عربي لصح إطلاقه على كل شاعر صوفي له شعر غزلي، ولصح عن رابعة العدوية التي يطلق عليها شهيدة العشق الالهي أن معشوقها إنسان في تلك الأشعار الرائعة التي وقفت أنفاس المحبين حولها لاهثة.

وليس هناك تعسف في شرح ترجمان الأشواق ولكنها المعاني العميقة والأسرار الالهية التي لا زالت تجد صيانتها في قلم ابن عربي عن الابتذال رغم الشرح. وستظل كذلك في صون وحفاظ حتى ولو

---

(٦٣) بين التصوف والأدب لمحمد إبراهيم الجيوشي ص ٨٢.

وضع حولها الشارحون ألف شرح وشرح.

ومن كتبه الهامة في "مكة" الفتوحات المكية الذي يقول عنه الشعراني: إنه بعد أن ألفه وضعه فوق الكعبة عاما كاملا، ثم بعد ذلك تناوله فوجده بالحالة التي وضعه عليها لم يؤثر فيه شمس ولا أمطار ولا رياح[٦٤].

ويعتبر تأليف هذا الكتاب صدى لما وصل إليه "ابن عربي" من منزلة روحية عظيمة وكما يقرر هو أن ما ورد فيه كان فيضا إلهيا ألقاه في روعة فترجم عنه في هذه الأجزاء الضخمة ذات الستين والخمسمائة فصل.

وكتاب الفتوحات–الذي نرجو أن نتحدث عنه فيما بعد–له أثره الخطير بين الصوفية ويعد من الكتب الرئيسية في علم التصوف.

٢– مجيئه إلى "مصر" في سنة ٦٠٣ كان سببا في إثارة ثائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل، وهموا بأن يبطشوا به لولا أن قيض الله له من كان سببا في انقاذه من هذه الفتنة التي أوشكت أن تعصف به.

وقصة ذلك أنه حين قدم القاهرة نزل في دار بها جماعة من الصوفية في "زقاق القناديل" والتأم شمل هؤلاء حول ذكر الله والتزم

---

(٦٤) اليواقيت والجواهر ص ١٢.

عبادته على نحو خاص أدى إلى ظهور بعض الخوارق على أيديهم، وفي ليلة انبعثت من أجسام الذاكرين أنوار مضيئة بددت ظلام الحجرة ورأى "ابن عربي" شخصا يخاطبه بلسان عذب فصيح قائلا: «اعلم أن الخير في الوجود والشر في العدم، أوجد الإنسان بجوده وجعله وحدانيا في وجوده، تخلق بأسمائه وصفاته وفنى عنها بمشاهدة ذاته، فرأى نفسه بنفسه وعاد العدد إلى أسه فكان هو ولا أنت».

وقد فهم "ابن عربي" هذه الإشارات وحاول أن ينظم حولها شعرا يترجم عن معانيها، ويبدو أن عوام الصوفية لم يدركوا جلال هذه المعاني فنقلوها عفوا أو تباهيا إلى أسماع الفقهاء الذين يغارون على السنة، ولعل ما كان قد شاع من أشعار ترجمان الأشواق قبل كتابة شرحها قد وصل أيضا إلى أسماع هؤلاء فأضيف هذا إلى ذاك، وأوصلوه إلى الملك العادل متهمين "ابن عربي" بالكفر والثبور وعظائم الأمور، طالبين منه إهدار دمه حتى يكون عبرة لغيره.

ولكن الغريب أن "ابن عربي" لم يتأثر بذلك ولم يتزعزع إيمانه، وكان ذلك بسبب توقعه لما يحدث له وتوطينه النفسي على الصبر على ذلك. جاء في شذرات الذهب: «وقد أوذي الشيخ كثيرا في حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره، وقد أخبرهم عن نفسه بذلك. وذلك من غرر كراماته. فقد قال في الفتوحات: «كنت نائما

في مقام إبراهيم، وإذا بقائل من الأرواح يقول لي عن الله: ادخل مقام إبراهيم إنه كان أواها حليما، فعلمت أنه لابد أن يبتليني بكلام في عرضي من قوم فأعلمهم بالحلم قال: ويكون أذى كثيرا فإنه جاء بحليم بصيغة المبالغة، ثم وصفه بالأواه، وهو من يكثر التأوه لما يشاهد من جلال الله»[٦٥] وقد وطن الشيخ الأكبر نفسه على الصبر لهذا الأذى حتى يكون جديرا بالتخلق بمقام الخليلية.

يقول مؤلف كتاب "ابن عربي" ومن حسن الحظ في هذه المناسبة أن هذه الاتهامات لم تلق أذنا سميعة عند الملك العادل لسياسته الحرة السمحة، وكانت توصية من جانب الشيخ أبي الحسن البجائي صديق ابن عربي، كافية لتفسير مذهب ابن عربي في وحدة الوجود تفسيرا رمزيا فأمر بإطلاق سراحه»[٦٦].

ولم تثن هذه المحنة عزيمة "ابن عربي" ولم تعقه عن طريقه؛ لأنه عرف هذا الطريق وأدرك نهايته وأيقن بسلامته، واستهان بكل خطورة فيه.

هل التقى ابن عربي بابن الفارض؟

شيء آخر في مصر يعد من الأحداث الهامة في حياة الشيخ الأكبر ذلك هو لقاؤه بابن الفارض.

---

(٦٥) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠.

(٦٦) ابن عربي ص ٦٥.

كان ابن الفارض معاصرا لابن عربي، وان اختلفت موطن كل منهما. فقد ولد ابن الفارض في مصر سنة ٥٧٦هـ ونشأ بها في ظل الدولة الأيوبية ورحل إلى مكة وقضى بها خمسة عشر عاما، رجع بعدها إلى القاهرة حيث مكث بها حتى وافته منيته سنة ٦٣٢هـ بعد أن بلغ في العلوم اللدنية والصوفية مبلغا كبيرا، وقد ضمن خلاصة معرفته أشعاره التي سرت مسرى الشمس، ووضع حولها الشراح كثيرا من الشروح والتعليقات وأطلق عليه من أجلها "سلطان العاشقين" وكان أهم أشعاره قصيدته "نظم السلوك"[٦٧].

ولقد أشارت بعض المصادر إشارات طفيفة حول إمكان هذا اللقاء، فقالت: إن محيي الدين بن عربي طلب من ابن الفارض أن يأذن له في شرح تائيته الكبرى فأجاب ابن الفارض: بأن كتابك الفتوحات المكية شرح لها، ومن هذه المصادر ما نقله المقري في نفح الطيب عن "المقريزي" في ترجمته لعمر بن الفارض[٦٨].

ولكن تفصيلات هذا اللقاء لم يتعرض لها أحد، حتى يمكن معرفة الزمان والمكان وبقية ما درا بين هذين الشيخين من حديث، مما جعل بعض المهتمين في العصر الحديث بدراستهما يغفلون هذه الحادثة إطلاقا، كما فعل "أسين بلاثيوس" في ترجمته "لابن عربي"

(٦٧) راجع عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ١٣٠، ص ١٢٧.

(٦٨) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠٧.

فإنه برغم تعرضه لبعض التفصيلات الدقيقة لحياته لم يتعرض لذكر واقعة لقائه لابن الفارض، وإن كان قد ذكر عن "ابن الفارض" أنه بلغ مرتبة عليا في التصوف والارتفاع في قلوب المسلمين، وذلك حينما تحدث عن شهرة "ابن عربي" «الذي طبقت شهرته بلاد المشرق كلها، لا ينافسه في شهرته غير صوفي آخر معاصر له هو عمر بن الفارض الشاعر المصري الصوفي المشهور»[٦٩].

ويجوز أن يقال: ان منهج "أسين بلاثيوس" في ترجمته لابن عربي يعتمد على ابن عربي نفسه في كتبه، ولاسيما كتاب الفتوحات لأنه يقول في مقدمة كتابه: «حياة الصوفي المرسي ابن عربي وهي موضوع القسم الأول من هذه الدراسة قد استخلصناه مما ورد من نصوص تتعلق بحياته في كتبه خصوصا في كتاب الفتوحات المكية، ودون أن نهون من شأن المعلومات القليلة التي يقدمها لنا من ترجموا لحياته فإننا نعتقد ان ما قدمه لنا ابن عربي نفسه أكبر أهمية».

و"ابن عربي" لم يتحدث عن هذا اللقاء بينه وبين "ابن الفارض" كما تحدث عن غيره من اللقاءات التي تمت بينه وبين شيوخ كثيرين.

---

(٦٩) ابن عربي ص ٨٥.

وكما أغفل "أسين بلاثيوس" هذه الواقعة أنكرها غيره من المستشرقين مثل "نيكلسون" "وماسينيون" يذكر ذلك الدكتور محمد مصطفى حلمي قائلا: «ومن هنا ذهب المستشرق الانجليزي نيكلسون إلى أن ابن الفارض وابن عربي لم يلتقيا قط، كما ذهب إلى مثله المسشرق الفرنسي الأستاذ ماسينيون، وذلك في محاضرة ألقاها بقاعة الجمعية الجغرافية عن ابن الفارض والششتري فقد استبعد أن يكون ابن عربي في زيارته لمصر قد عرف ابن الفارض، وإن كان كل منهما قد أحس بوجود صاحبه في عالم الشعر والتصوف»(٧٠).

والدكتور مصطفى حلمي يذكر ذلك بعد قوله: «نحن لا ننكر زيارة ابن عربي لمصر أو إلمامه بها، ولكن الذي لا نستطيع التثبت منه هو أن يكون ابن عربي قد التقى حقا بابن الفارض ونشأت بينهما صلة شخصية تبودلت فيها الآراء الصوفية والأذواق الروحية، إذ ليس ثمة ما يثبت هذه الصلة إثباتًا قاطعًا».

ونحن لا يمكننا إضافة شيء جديد إلى ذلك، ولكن يمكن أن نذهب إلى رأي الذي يثبت إمكانية هذا اللقاء وحدوثه، مستمدين من حرص"ابن عربي" الزائد على لقاء الشيوخ دليلا قويا على حدوث هذا اللقاء؛ فإن المتتبع لرحلات هذا الشيخ الجليل يرى مدى شغفه بالتعرف إلى رجال الوقت من الصوفية، وفي كل مكان يحل فيها

(٧٠) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٩١.

يبحث عمن يرى أنهم محل نظر الله في الأرض. وابن الفارض لم يكن شيخا مغمورا من شيوخ الصوفية، ولكنه كان علما من أعلامهم تشد إليه الرجال من كل مكان، فليس من المعقول ان تسنح لابن عربي فرصة ثمينة كهذه ولا يغتنمها وهي فرصة وجوده في القاهرة.

على أن هذا اللقاء قد لا يكون حدث في القاهرة، إذ من الجائز حدوثه في مكة، ونحن نعلم أن ابن الفارض «قضى في ظل الحجاز أشرق أيامه بأنوار الفتح فيما بين سنتي ٦١٣ هـ و٦٢٨ في أواخرها أو ٦٢٩ هـ في أوائلها»[٧١] وابن عربي يقينا كان يلم كثيرا بمكة في هذه السنين قبل رحيله نهائيا إلى دمشق سنة ٦٢٠، ففي هذه السنوات السبع السابقة على استقراره في دمشق لا يبعد أن يكون قد حدث لقاء بين الشيخين العظيمين، ولعل ذلك هو الأرجح، فإن ابن الفارض قبل رحيله إلى الحجاز لم يكن قد ألف بعد "تائيته الكبرى" التي يعتبر أن الفتوحات المكية شرح لها.

أما إغفال "ابن عربي" قصة هذا اللقاء فذلك سر من أسرار الصوفية يظهر في تصرفاتهم الغريبة في بعض الأحيان، وقد يكون هذا الإغفال متعمدا من جانب "ابن عربي" لأن هناك من الأحاديث التي دارت بينهما ما لا يمكن الإباحة به أو الخوض فيه بين

(٧١) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٩١.

شخصين أحدهما سلطان العارفين والآخر سلطان العاشقين، وبين العشق والمعرفة تدق الأسرار وتتوه الأفكار.

إن هذا اللقاء ممكن من غير شك، وكل ما أمكن أن يسجل منه هو هذا الحوار القصير الذي لا يؤدي إلى هتك سر أو كشف حجاب. هذا الحوار الذي دار حول شرح التائيه الكبرى وأن الفتوحات المكية خير شرح لها.

والتائيه الكبرى قصيدة طويلة اسمها "نظم السلوك" وكانت ثمرة من ثمرات الوجد والغيبة والدهش وغيرها من الأحوال الصوفية التي كانت تعرض لنفس ناظمها وتعتبر ترجمة ذاتية لحياة الشاعر الروحية[٧٢]، وهي بوصفها هذا يمكن أن يصدق عليها قول ابن الفارض لابن عربي: كتابك الفتوحات الملكية شرح لها. لأن الفتوحات تتجه هذا الاتجاه وفيها بيان توضيحي لما كان يمر به الشيخ الأكبر من مراحل روحية وأذواق وجدانية.

منزلته لدى الملوك والأمراء:

ويُمكن للمتتبع لحياة هذا الرجل العجيب الذي قضى حياته كلها منهكا جسمه وقواه في رحلات دائبة مستمرة، أن يدرك مدى الأحداث الهامة في حياته التي لم تخل من حيوية دافقة وحماس

---

(٧٢) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٢١٣.

علمي بالغ وإنتاج خصب وفير في كل المعارف الصوفية التي قوبلت في بعض الأحيان بالإنكار والمعارضة، وقد رأينا لونا منها في أثناء مروره بالقاهرة، والتي اشتدت فيما بعد حتى حرضت الناس على عدم مطالعة كتبه وقراءتها بل ونادت بإحراقها، وقد أدى ذلك إلى ضياع كثير من مؤلفاته التي لم يبق منها إلا أقل القليل.

ولكن حياته مع ذلك كانت مباركة عامرة زاخرة بجلائل الأعمال، وقد بلغ الشيخ الأكبر لدى الملوك والأمراء منزلة عالية، وصل إليها بالزهد، وقد ورد عن الصوفية هذه الحكمة الخالدة: أزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس. وكان "ابن عربي" كذلك، فقد وجد الملوك فيه نموذجا فريدا غير ما كانوا يرونه من العلماء والفقهاء، ففي الوقت الذي يتنافس فيه هؤلاء للتقرب إلى أولى الأمر وأصحاب السلطة، طمعا فيما ينالونه منهم من مغانم مادية أو أدبية، كان هو ينفر من ذلك، وقد وطد نفسه على الفرار من كل قيد حريته ولو كان هذا القيد من ذهب. يضاف إلى هذا عدم تحرج بعض العلماء في اكتساب المال ولو كان على حساب الدين، في حين أن الشيخ الأكبر كان يعمل للدين حسابه ويرعى له حرمته وقداسته، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي أفنى حياته على أساس قواعده في الوصول إلى حقيقة المعرفة؟

ولنضرب مثلا على ذلك حتى لا يظن أن هذا الكلام يطلق على علاته: بلغ "ابن عربي" في نفس الملك الظاهر غازي صاحب مدينة حلب، منزلة عظيمة، وأصبحت له كلمة مسموعة لديه في الشفاعة لأصحاب الحاجات، وكان الملك يقصده كثيرا في منزله، وقد رفع إليه "ابن عربي" في مجلس واحد مائة وثماني عشرة حاجة قضاها الملك جميعها لأصحابها، ومنها الاستشفاع لشخص كان متهما بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك نفسه، وكان من جملة بطانته فعفا عنه إكراما لشفاعة محيي الدين بن عربي فيه.

وقد غطى جلال الشيخ الأكبر على ما كان للعلماء والفقهاء من نفوذ بلاط ذلك السلطان وكان هؤلاء لغلبة الهوى في نفوسهم «قد تركوا المحجة البيضاء وجنحوا إلى التأويلات البعيدة» ليحققوا ما يريده الملوك من أغراض لهم فيها هوى محاولين بذلك الاستناد إلى نصوص شرعية رغم أن هذه الفتاوى التي يصدرونها ربما لا يعتقدونها، ولقد صرح الملك "غازي" لابن عربي: بأن الأمور التي تنكرونها على ما أقدمت على منكر منها-رغم علمي بنكرانه-الا بفتوى فقيه وخط يده يشهد على ذلك. وقد بلغ من جرأة أحدهم أن أفتاه بأنه يجوز له أن يفطر في شهر رمضان ويكفيه أن يصوم أي

شهر في السنة، فليس رمضان بالذات هو الذي فرض على الناس صومه»[٧٣].

ومن العجيب أن يتهم أمثال هؤلاء الفقهاء "ابن عربي" وأضرابه ممن هم على الجادة بالزيغ والفساد والزندقة، ويبرئون أنفسهم من هذه التهم التي هم أولى بها منهم.

وقد مر بنا كيف أن ملك "قونية" كيكاوس الأول خرج بنفسه لاستقبال ابن عربي وأكرمه وبالغ في اكرامه وأهداه دارا تقدر بمائة ألف درهم[٧٤].

أما صاحب حمص "أسد الدين شيركوه، فقد أكرم مقدمه وأراد أن يستبقيه عنده ورتب له كل يوم مائة درهم[٧٥].

أما الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل الأيوبي صاحب دمشق، فقد كان له شرف جوار الشيخ الأكبر فترة طويلة تقدر بحوالي ثمانية عشر عاما، وقد أكرم هذه الملك "ابن عربي" إكراما كبيرا، وكان ينظر إليه نظرة المريد إلى أستاذه، وقد أذن له "ابن عربي" أن يروي عنه كتبه. نقل القري عن الفيروزبادي: «وقفت على إجازة كتبها للملك المعظم، فقال في آخرها: وأجزته أيضا أن

---

(٧٣) راجع ابن عربي ص ٧٨ وما بعدها.

(٧٤) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠١.

(٧٥) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠٨.

يروي عني مصنفاتي ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف»[٧٦].

وقد حاول ملك "قونية" استقدامه مرارا إليه، وكان يكتب إليه يستشيره في كثير من الأمور، وكان "ابن عربي" يرد عليه بما يراه صالحًا للمسلمين، ومن ذلك مثلا هذه الرسالة التي كتبها ووردت في الفتوحات: «عليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم، وساو بينهم كما سوى الإسلام بينهم في أعيانهم، ولا تقل: هذا ذو سلطان وجاه ومال كبير وهذا صغير وفقير وحقير، ولا تحقر صغيرا ولا كبيرا في ذمته، واجعل الإسلام كله كالشخص الواحد، والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص، وكذلك هو الأمر فإن الإسلام ما له وجود إلا بالمسلمين كما أن الإسلام ما له وجود إلا بأعضائه وجميع قواه الظاهرة والباطنة»[٧٧].

ومن هذه الرسالة يبدو مدى حرص "ابن عربي" على مصلحة المسلمين، كما يبدو منها اخلاص النصح للملك الذي كان يلجأ إليه مستشيرا فكان يجده دائما عند حسن ظنه، ويرد عليه بما يعينه على سياسة رعيته وإصلاح شأن المسلمين.

---

(٧٦) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٩.

(٧٧) ابن عربي ص ٧٤.

ولم يكن "ابن عربي" يرهب الخلفاء والحكام؛ لأنه كان مؤيدا بصولة الحق ونور المعرفة بل كان الأمر بالعكس، فقد كانوا هم الذين يرهبونه ويعملون له ألف حساب، لشخصيته هو أولا ثم لقوة نفوذه بين أتباعه ومريديه، وما كان "ابن عربي" من الأشخاص المغامرين الذين يفكرون في احداث ثورات أو اضطرابات ضد أولى الأمر، ولكنه كان زاهدا متواضعا مطيعا، منفذا لأمر الله في طاعة أولياء الأمور. وهو بما أعطاه الله من بصيرة أصبح لزاما عليه أن يقوم بواجبه الديني كاملا بما في ذلك المشاركة في اسداء النصح والتوجيه الكريم لمصلحة الإسلام والمسلمين كما رأينا في رسالته العديدة ونصائحه المختلفة للملوك.

حدث مرة في بغداد أن كان يسير بين طائفة من تلاميذه، ومر عليهم الخليفة في موكبه، فأمر "ابن عربي" أتباعه ألا يبدأوا بتحية الخليفة جريا على العادة التي كانت متبعة، فانصاعوا لأمره، حتى حاذاهم الخليفة فبدأهم هو بالسلام فردوا عليه.

وابن عربي لم يكن يريد من ذلك الانتفاض من قدر الخليفة، ولكنه أراد أن يعيد إلى المسلمين تقليدا شرعيا في التحية تناساه الناس أمام جبروت الخلفاء. ذلك التقليد هو أن يبدأ الصغير الكبير، والراكب الماشي، والماشي الجالس بالتحية، وقد كان الخليفة

ممتطيا صهوة جواده وهم راجلون، فيجب على الخليفة أن يكون هو البادئ بالتحية بناء على هذا الأدب العالي الذي وضعه الإسلام.

على أن هذه المنزلة التي لقيها "ابن عربي" في المشرق لدى الخلفاء، كان يقابلها بعض التحفظ من ملوك المغرب، ويمكن تعليل ذلك بأن السلطة في ذلك الوقت كانت في يد الموحدين، وكانوا بصدد تكوين دولتهم في الأندلس وتوطيدها في أفريقيا، ومنشئو الدول عادة يقفون من كل من يظن له نفوذ موقف التحفظ، لاسيما وهم يدركون أن للدين سطوته ورهبته، وأن التصوف بخاصة يحمل أصحابه على التضحية والفداء، وهم لا يريدون إثارة الحمية الصوفية في النفوس، حتى لا تتحول مع الزمن إلى ثورة عاتية ربما تقضي عليهم وتبدد دولتهم. هذا سبب، وسبب آخر هو أن سلطة الفقهاء في ذلك الوقت كان لها تأثير مضاد ضد الصوفية، وهم ما زالو يحملون لواء الخصومة للتصوف وأنصاره، وقد استطاعوا بتأثيرهم أن يوغروا صدر السلطان ضد شيخ من شيوخ التصوف هو "أبو مدين" وقد أراد ابن عربي أن يزيل ما ألصق بهذا الشيخ المجاهد من اتهامات زينها له الفقهاء، فدارت بينه وبين السلطان "يعقوب المنصور" مناقشة في شأنه انتهت على غير ما كان يرجو "ابن عربي" فخرج غاضبًا من عنده.

على أن ما فقده الشيخ الكبر من منزلة لدى هؤلاء لم يكن له أدنى تأثير في نفسه، وقد عوضه الله عن ذلك ما هو أعز وأرفع لدى جميع ملوك أهل الشرق، حتى إذا ما قضى وجد هؤلاء الملوك أنفسهم ملزمين بأن يتابعوا واجبهم نحوه، فأولوا مدفنه عناية فائقة، وتعهد بذلك الخلفاء المتعاقبون على دمشق وبخاصة العثمانيون الذين جددوا هذا المزار مرارا. وكان لهم في الشيخ الأكبر اعتقاد خاص. يذكر الشعراني سببه وهو تنبؤه بسلطان العثمانيين[٧٨]. وقد أجريت عليه الأوقاف وأصبح مزارا مشهورا يقصده الناس من كل مكان. وبنى عليه السلطان سليم خان مدرسة عظيمة[٧٩].

---

(٧٨) طبقات الشعراني جـ ١ ص ١٦٣.

(٧٩) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٤٩.

أخلاقه

أفنى الشيخ الأكبر حياته في الطريق الصوفي حتى وصل إلى غايته، ومبنى الطريق الصوفي قائم على الأخلاق، ولعناية التصوف بها جعلها أساسا ووسيلة وغاية، والصوفية يحكمون على مراتب بعضهم بما يرونه من أخلاق، لذلك يقولون: كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه. ويضعون للتصوف تعريفات مختلفة لا تخرج في ذاتها عن التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

والشيخ الأكبر رائد عظيم من رواد هذا الطريق الذي نظر إليه المتصوفة وغيرهم نظرة إكبار وإعظام، وغني عن القول بأن هذه المنزلة وصل إليها بما كان عليه من استقامة على الجادة وصدق في الطلب وورع كامل بلغ إلى حد لا يمكن أن يصل إليه الا من ندر وأخلاق كريمة حببت فيه الخاص والعام.

وقد كان لنشأته الأولى في أسرة صالحة تقية إلى جانب أرومته النقية إلى جانب مصاحبته كل من صاحبه التوفيق أثر كبير في تلك النفحات العطرة الكريمة التي تضوع بها هذه الشخصية المحببة.

والشيخ الأكبر حقيق بهذا الوصف الذي وصفه به "ابن مسدى" أنه كان جميل الجملة والتفصيل. ولكن هناك مناقب بارزة في حياته جديرة بالوقوف عندها قليلا.

فمن ذلك زهده الشديد الذي كان مضرب الأمثال، ذلك الزهد الذي رفعه في أعين الناس. والزهد عند الصوفية منازل ودرجات. أعلاها الزهد فيما سوى الله، وقد كان زهد الشيخ الأكبر من هذا النوع الذي جعله يهجر كل نعمة ويترك كل راحة، ويحقر كل لذة، ويضحي بكل غال في سبيل الظفر بأمنيته.

ولقد توفر المال بين يديه فما أمسك منه شيئا، ورغب الملوك والسلاطين في أن يؤمنوا له حياته ويوفروا له كل أسباب الراحة والنعمة، ولكنه رغب عن كل ذلك، وأطلق نفسه من كل أسر، وانطلق يحلق في الأجواء. ومرت عليه فترة من حياته زهد فيها معاشرة زوجه عملا بنصيحة شيخه "المغاوري" التي سمعها من أحد تلاميذه والتي ينهى فيها عن معاشرة النساء. ولم يقبل عليها بعد ذلك إلا امتثالا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أمره بإعطاء المرأة حقها من المعاشر الحسنة. فهو يقول: «كنت من أكره خلق الله تعالى في النساء في أول دخولي إلى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحوا من ثماني عشرة سنة إلى أن شهدت هذا المقام، وكان تقدم عندي خوف المقت لذلك» ويقصد بالمقام مقام امتثاله لسنة

النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الزواج ومعاشرة الزوجة. وخاف على نفسه المقت لأنه خالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك. والزهد رأس الفضائل لاسيما إذا كان عن قدرة.

ومن صفات "ابن عربي" الجديرة بالتسجيل كرمه الذي كان مضرب الأمثال، وهو كرم متوارث من أسرته الطائية المشهورة زكاه دينه وورعه وخلقه وتصوفه. والتصوف لا يمقت شيئا كما يمقت البخل، فالله لم يحبب في شيء كتحبيبه في الانفاق والبذل، ولم ينفر كما نفر من البخل والشح لأنهما من أسباب سوء الخلق.

وكرم "ابن عربي" ارتفع إلى درجة الايثار، وهو أرفع منازل الجود، «أمر له ملك الروم في (قونية) مرة بدار تساوى مائة ألف درهم قلما نزلها وأقام بها، مر به في بعض الأيام سائل، فقال له: شيء لله، فقال: مالي غير هذه الدار، خذها لك، فتسلمها السائل وصارت له»[٨٠].

وكان ينفق عطاءه اليومي جميعه على الفقراء والمساكين وكان كثيرا قدر بمائة وثلاثين درهما.

ولقد أدرك "ابن عربي" المعنى الصوفي للصدقة، فإنها ليست مجرد اعطاء للفقير، ولكن لها معنى أبعد من ذلك، تعلمه من شيخه

---

(٨٠) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠١.

"يوسف الأستجي" الذي يروي عنه هذه القصة: «وقفت أنا وعبد صالح معي يقال به: يوسف الأستجي على سائل يقول: من يعطي شيئا لوجه الله، ففتح الرجل صرة دراهم كانت معه، وجعل ينتقي له من بين الدراهم قطعة صغيرة يدفعها للسائل، فوجد ثمن درهم، فأعطاه اياه، وهذا العبد ينظر إليه فقال لي: يا فلان، تدري على ما يفتش المعطي؟ قلت: لا، قال: على قدره عند الله. لأنه أعطى السائل لوجه الله، فعلى قدر ما أعطى لوجهه ذلك قيمته عند ربه»[٨١].

ويصل الكرم بابن عربي إلى درجة التصدق بثواب ما يعمل من طاعة، رغبة في جزاء السيئة بالحسنة، وهذا منتهى المروءة، فإن مقابلة الإحسان أمر طبيعي أما مقابلة الإساءة بالإحسان فذلك أمر لا يكون إلا من سوابق المهم، ولا يدل إلا على عظم اتساع القلب والارتفاع فوق مستوى البشرية.

جاء في نفح الطيب: «قال الشيخ محيي الدين..: أنه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت في بأمور عظيمة، فقلت: هذه قد جعلها الله سببا لخير وصل إلى فلأكافئنها، وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها وعنها، ففعلت ذلك، فلما كان الموسم استدل على رجل غريب، فسأله الجماعة

---

(٨١) ابن عربي ص ٢٦.

عن قصده فقال: رأيت "بالينبع" في الليلة التي بت فيها كأن آلافا من الإبل أوقارها المسك والعنبر والجوهر، فعجبت من كثرته ثم سألت: لمن هو؟ فقيل: هو لمحمد بن عربي يهديه إلى فلانة–وسمى تلك المرأة–ثم قال: وهذا بعض ما تستحق.

«قال سيدي ابن عربي: فلما سمعت هذه الرؤيا واسم تلك المرأة – ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم مني ذلك–علمت أنه تعريف من جانب الحق، وفهمت من قوله: إن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها، فقصدت المرأة، وقلت: اصدقيني، وذكرت ما كان من ذلك، فقالت: كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف، فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم، فقلت في نفسي: اللهم اني أشهدك أني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما، قال: فعلمت أن الذي وصل مني إليها بعض ما تستحق فإنها سبقت بالجميل والفضل للمتقدم»[٨٢].

فهذه القصة تفهمنا مسارعة ابن عربي إلى إهداء ثواب أعماله إلى امرأة سبق إلى ظنه – بناء على ما أبلغه – أنها أساءت إليه، فأراد أن يكافئها على ذلك، ولو كان ما يهديه إليها شيئا ماديا لكان جديرا بالفضل، فما بالك حين تعلم أن الهدية ثواب طاعة وهو

(٨٢) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٢٧.

أحرص ما يكون الإنسان عليه؟ فلن يدل ذلك إلا على نهاية المروءة والكرم والايثار يقول المقري: «وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة فما ادخر منها شيئا، وقيل أن صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهما فكان يتصدق بالجميع»[٨٣].

والقصة المتقدمة تسلمنا إلى فهم آخر في أخلاق "ابن عربي" هو الإحسان إلى من أساء والعفو الجميل الصادر عن قلب صاف خال من أي ذرة من ذرات الحقد أو الغل أو الكراهية. وهذا أوفى درجات الحلم.

وقد وطن الشيخ نفسه منذ أن نذرها للطريق الصوفي أن يكون مفتاحا للخير مغلاقا للشر، محتملا للأذى ومعينا للاخوان، وتلك ثمرة من ثمار هذا الطريق وتوجيهات أئمة التصوف، ولن يكون الصوفي صوفيا إلا إذا كان ذا قلب واسع يملؤه الصفح وتنيره الرحمة، والصوفي في ذلك ينظر إلى نبيه الكريم الذي وصفه الله عز وجل بهذه الصفات العالية «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم»[٨٤] «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين»[٨٥] ويحدث هو عن نفسه قائلا: «إنما أنا رحمة مهداة».

---

(٨٣) نفح الطيب جـ ٧، ص١٠٨.

(٨٤) التوبة ١٢٨.

(٨٥) الأنبياء ١٠٧.

جاء في شذرات الذهب: «مما وقع له أن رجلا من دمشق فرض على نفسه أن يلعنه كل يوم عشر مرات، فمات، وحضر ابن عربي جنازته ثم رجع وجلس في بيته وتوجه للقبلة. فلما جاء وقت الغداء أحضر إليه فلم يأكل ولم يزل على حاله إلى بعد العشاء، فالتفت مسرورا، وطلب العشاء وأكل، فقيل له في ذلك. فقال: التزمت مع الله أني لا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي يلعنني، وذكرت له سبعين ألف لا اله الا الله فغفر له»[١].

ثم يقول ابن العماد: «وقد أوذي الشيخ كثيرا في حياته وبعد مماته مما لم يقع نظيره لغيره، وقد أخبر هو عن نفسه بذلك، وذلك من غرر كراماته» وقد سبق الإشارة إلى ذلك الاخبار وتعقيبه عليه بقوله: «فعلمت أنه لابد أن يبتليني الله بكلام في عرضي من قوم فأعلمهم بالحلم»[١].

هذا وشخصية الشيخ الأكبر صفحة مشرقة بكل ما يملأ النفوس اجلالا واعظاما، وفي كل ناحية من نواحي العظمة الخلقية تجد له قدما راسخا وأثرا مشهودا، مما يطول بيانه ويعجز الوفاء به، وصدق ابن العماد في قوله: «من تأمل سيرة ابن عربي وأخلاقه الحسنة وانسلاخه عن حظوظ نفسه وترك العصبية حمله ذلك على محبته واعتقاده»[١].

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٢.

ومن أقوال ابن عربي المأثورة التي تدل على سعة قلبه وجميل عفوه: «شرط الكامل الإحسان إلى أعدائه وهم لا يشعرون تخلقا بأخلاق الله، فإنه دائم الإحسان إلى من سماهم أعداءه مع جهل الأعداء به»[٨٦].

و"ابن عربي" رغم الكرامات التي كانت تحدث على يديه، فإنه لم يكن يعبأ بذلك أو يعلق عليه أهمية تذكر، وهذا يضيف إلى أخلاقه صفة أخرى، هي صفة التسامي إلى أعلى مدى يمكن أن تصل إليه روح، وكثيرا ما كان ينصح أتباعه ومريديه بألا يتطلعوا إلى شيء من هذه الخوارق أو الكرامات؛ لأنها كثيرا ما تقف عقبة في طريق وصول المريد إلى الكمال، فإن حدث شيء من ذلك عفوا فعليه أيضا ألا يلتفت إليه بل عليه أن يستغفر منه لأنه امتحان في قالب إكرام.

والكرامة الحقيقية في نظر "ابن عربي" وأمثاله هي الاستقامة على الجادة، والمضي قدما إلى الأمام دون الالتفات إلى أي عارض يعترض الطريق، ومن نصائحه في ذلك: «لا تطلب من الله في خلوتك سواه، ولا تعلق الهمة بغيره، ولو عرض عليك كل ما في الكون فخذه بأدب ولا تقف عنده، وصمم على طلبك فإنه يبتليك، ومهما وقفت مع شيء فاتك، وإذا حصلته لم يفتك شيء» وقد عبر

---

(٨٦) المرجع السابق ص ١٩٦.

عن هذا المعنى صوفي آخر من تلاميذ الشاذلي هو ابن عطاء الله السكندري في حكمة من حكمه الرائعة بقوله: «ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر»[٨٧].

[٨٧] شرح الرندي على حكم ابن عطاء الله السكندري.

ابن عربي الأديب

بيئة الأندلس والأدب: سبق الإشارة إلى طبيعة الأندلس الجميلة المحببة إلى النفوس فقد أحاطت بها المياه من أعظم جوانبها، وتمتعت بتربة خصبة صالحة لما نما فيها من أشجار باسقة وأزهار متفتحة وثمار يانعة، وتعددت فيها الأنهار التي من أهمها النهر الكبير ونهر تاجة، وذلك إلى جانب ما يوجد فيها من جبال متدرجة تثمر على سطوحها مختلف الزروع وشتى الثمار، وقد تغنى كثير من الشعراء والأدباء بمفاتن الأندلس ووصفوا جمالها الأخاذ الساحر، وتفننوا في عرض هذه الصور في منظومات رقيقة وتعبيرات أنيقة..

وقد كانت هذه البيئة مهدا صالحا لإخراج مئات الشعراء والأدباء الذين صقلت مواهبهم تلك المناظر الفاتنة وأبرزت استعداداتهم هذه المشاهدات البارعة:

استعداد ابن عربي: وكان هذا كفيلا بتهيئة الفرصة لظهور موهبة كموهبة "ابن عربي" الذي هيأته أرومته العربية الأصلية الشاعرة فزودته بالاحساس المرهف والانفعال الصادق، والتجاوب مع كل ما يقع تحت سمعه وبصره من فن مطبوع ومصنوع.

والتقى ابن عربي في صباه بطائفة من العلماء الأجلاء "الفنانين" الذين يحبون الأدب ويتذوقونه ويقولونه. فأستاذه في القراءات "أبو القاسم الشراط" كان بصيرا باللغة وآدابها وله حظ من قرض الشعر. وأستاذه "أبو محمد عبد الحق الأشبيلي" كان أديبا شاعرا ومن شعره:

إن في الموت والمعاد لشغلا   لأولي الدين والنهي وبلاغا

فاغتنم خطتين قبل المنايا   صحة الجسم يا أخي والفراغا

وغيرهما من أساتذته كان له ذلك الحظ من الأدب، وشيوخه في التصوف كان أغلبهم أدباء فنانون لهم الباع الطويل في فنون النظم والنثر، ومن بنيهم "المارتلي وأبو مدين" وكلاهما له أدب جيد رفيع.

كل ذلك كان له أثره في صقل موهبته الأدبية وانما استعداده الفني مما جعله شاعرا مجيدا. يضاف إلى ذلك اقباله على قراءة كثير من كتب الأدب ونقده والانتفاع بها انتفاعًا كبيرًا، وهو يحدث في مقدمة كتابه "محاضرة الأبرار" عن كثير من الكتب التي قرأها، ومن بينها في فن الأدب الكتب الآتية: الأماني لأبي المعالي البغدادي نزيل قرطبة، وكتاب ريحانة العاشق لأبي القاسم المسور، وكتاب روضة الأنس لأبي زيد السهيلي، وكتاب الكامل للمبرد، وزهرة الأدب للحضري، والمحاسن والأضداد للجاحظ، ومعاناة العقل للحلوى، والحماسة لأبي تمام، والحماسة الحلوية وغيرها.

وهذا الاستعداد هو الذي كفل له أن يتولى كتابة الانشاء في ديوان "أشبيلية" ولا يتولى هذا المنصب إلا من كانت لديه الموهبة لذلك.

وقد كان ابن عربي منذ نشأته ميالا إلى الأدب، وكان يشارك في مجالسه وله دراية كاملة بفن القول يشهد لذلك كثرة ما أثر عنه من انتاج أدبي رائع في فن النظم والنثر.

إعجابه بالشعر الجيد ومشاركته في مجالس الأدب: ولقد كان يعجبه بيت من الشعر فينظم على منواله، من ذلك مثلا ما يرويه بيتا مفردا فأعجب به، فعمل أبياتا وضمنها هذا البيت وهو الرابع من القطعة الآتية:

قف بالطول الدارسات بلعلع   واندب أحبتنا بذاك البلقع

قف بالديار وناجها متعجبا   منها بحسن تلطف وتفجع

عهدي بمثلك عند بانك قاطعًا   ثمر الخدود وورد روض أينع

«كل الذي يرجو نوالك أمطروا   ما كان برقك خلبا إلا معي»

قالت: نعم قد كان ذاك الملتقى   في ظل أفناني بذاك الموضع[88]

---

(88) مجلة منبر الإسلام عدد ربيع الأول-١٣٨٦هـ.

"ابن عربي" يتمتع بملكة نقد صافية تعينه على تمييز الجيد من الكلام، وكتابه محاضرة الأبرار خير نموذج لذلك تقتطف من زهراته ما يأتي:-

يقول ابن عربي: مما جاء في الجود قول الشاعر:

فتى عاهد الرحمن في بذل ماله   فلست تراه الدهر إلا على العهد
فتى قصرت آماله عن فعاله   وليس على الحر الكريم سوى الجهد

ويعلق على ذلك بقوله: هذا المديح أقرب للديانة من الكرم، فإن عطاءه إنما هو من أجل الوفاء بعهده مع الله، حتى لا يكون من الذين ينقضون عهد الله، والكريم سجيته الكرم، فلا يحتاج إلى القسم عليه إلا لعلة نفسه، فما وفى هذا الشاعر مدح هذا في الكرم ما تصور له في خاطره. فهذا اللفظ دون ما في القصد.

ومن جيد الشعر ما قال القائل:

لئن ساءني أن نلتني بإساءة   لقد سرني أني خطرت ببالكا

ويعلق: وأحسن منه لو قال ما قلنا:

لئن سرني أن نلتني بمساءة   فما كان إلا أن خطرت ببالكا

لأن الأول قد أقر بأنه أساء ثم اعتذر.

ومن أحسن الشعر ما قال الآخر في باب الشكوى:

فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت أشكو من الطول ما أشكو من القصر

ويعلق: أحسن منه ما قلنا:

شغلي بها وصلت بالليل أو هجرت فما أبالي أطال الليل أم قصرا

فإن الأول شغله بطول الليل وقصره من أجلها. فهو فاقد لها في زمن الاشتغال بغيرها والثاني شغله بها ومن سواها تبع[٨٩].

وهذا الكتاب غاص بمثل ذلك وغيره من ألوان القطوف.

ومن أمثلة مشاركة في مجالس الأدب ما يحكيه المقري نقلا عن العماد بن النحاس: «أنه كان في سفح جبل قاسيون على مستشرف، وعنده الشيخ محيي الدين والغيث والسحاب عليهم، ودمشق ليس عليهم شيء، قال فقلت للشيخ: أما ترى هذه الحال؟ فقال: كنت بمراكش وعندي ابن خروف الشاعر، يعني أبا الحسن علي بن محمد القرطبي القيذافي، وقد اتفق الحال مثل هذه، فقلت له مثل هذه المقالة، فأنشدني:

يطوف السحاب بمراكش طواف الحجيج ببيت الحرم

يروم نزولا فلا يستطيع لسفك الدماء وهتك الحرم[٩٠]

---

(٨٩) محاضرة الأبرار جـ٢ ص ٤٤.

(٩٠) نفح الطب جـ ٧ ص ١٠٦.

مأثوراته الأدبية:

ومأثورات "ابن عربي" الأدبية كثيرة، في مقدمتها دواوين شعره، ويذكر منها "بروكلمان" الديوان الأكبر– وديوان الأشواق وله اسم آخر هو (الهجاء الأمجد على ترتيب حروف الأبجد) وديوان المرتجلات، والقصيدة التائية، وقصيدة في المناسك، وترجمان الأشواق وشرحه عليه المسمى: بذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق، وغير ذلك من الكتب. ومن عيون آثاره الأدبية كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، وهو كتاب نفيس جمع «ضروبا من الآداب وفنونا من المواعظ والأمثال والحاكيات النادرة، والأخبار السائرة، وسير الأولين من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والأمم وأخبار ملوك العرب والعجم ومكارم الأخلاق..» [٩١] وفيه يقول: محاضرة الأبرار خير كتاب، لب اللباب ونزهة الألباب.

نماذج من شعره: وشعر "ابن عربي" يدور أغلبه حول المعاني الصوفية، وإن كان بعض ما فيه من قصائد تدور حول النواحي الاجتماعية كهذين البيتين اللذين وردا في إجابة سؤال سأله بعض أصحابه له: كيف حالم مع أهلك؟ فأجاب:

إذا رأى أهل بيتي الكيس ممتلئا   تبسمت ودنت مني تمازحني

(٩١) محاضرة الأبرار (المقدمة).

وإن رأته خليا من دراهمه تكرهت وانثنت عني تقابحني

وهي قضية اجتماعية نراها سائدة في نختلف المجتمعات، فقد أجابه السائل: كلنا ذلك الرجل.

وبالرغم من زهد "ابن عربي" إلا أنه رأى حب المال سائدا كما رأى أثره في مختلف مناحي الحياة بل هو عصبها، ولكن يجب ألا يكون شاغلا عن الله فهو ينصح بأن يكون الإنسان غنيًا بالله لا بالمال:-

بالمال ينقاد كل صعب من عالم الأرض والسماء

يحسبه عالم حجابًا لم يعرفوا لذة العطاء

لولا الذي في النفوس منه لم يجب الله في الدعاء

لا تحسب المال ما تراه من عسجد مشرق الضياء

بل هو ما كنت يا بنيي به غنيًا عن السواء

فكن برب العلا غنيًا وعامل الخلق بالوفاء

ومن القضايا الاجتماعية البارزة في كل عصر هي أن يتولى بعض الأمور من ليس أهلا لها، وأن يرتفع الحقير ويتضع العظيم، وهذه سنة الكون:-

قد ثاب غلماننا علينا فما لنا في الوجود قدر

أذنابنا صيرت رءوسا ما لي على ما أراه صبر

هذا هو الدهر يا خليلي فمن يقاسيه فهو قهر

وله في الفخر قصائد مر علينا طرف منها.

وابن عربي كشاعر مطبوع نشأ في بيئة الأندلس المزهرة لا ينسى الاعجاب بالطبيعة، وما أنشد فيها من شعر كما يصوغ هو في ذلك. فمما أعجبه وضمنه كتابه محاضرة الأبرار، قول أبي علي ابن شبل في وصف الربيع:-

عرائس الأرض تجلى في غلائلها وفي حلى عليها صاغها الديم

تستن في حلل الأنوار مذهبة في كل حاشية من نسجها علم

در من الأقحوان الغض زينه حمر اليواقيت في المنثور ينتظم

كأنما بالسماء الأرض شامتة تبكي السماء وثغر الأرض يبتسم

وأما قول ابن عربي فهو:-

أما ترى الروضة الغناء تضحك إذ جادت على الأرض بالأزهار أنواء

تبسم الأرض إذ تبكي السماء فهل بين السماء وبين الأرض شحناء

لا والذي بضروب الزهر أضحكها ما ثم شحناء لكن ثم أشياء

أن السماء تقول الزهر من زهري والأرض تأبى الذي قالته والماء

وابن عربي زاد علي ابن شبل جمال التعليل.

المعاني الصوفية في شعره:

ولكنه في شعره شغل بالتصوف كما شغل به في غيره من الكتب، ولذلك حفل إنتاجه بهذه المعاني التي دارت حول الشوق والمحبة والأنس والغناء والبقاء وفنون المعرفة التي كشف له عنها أو تذوقها، وغير ذلك من المصطلحات التي حفلت بها كتب التصوف.

وقد نحا في شعره منحى الرمز كغيره من الصوفية لأنه ضن بأسراره أن تنتهك، وتلك عادة الصوفية في التعبير عن أذواقهم. ومن هذا اللون الرمزي قوله في محاضرة الأبرار:-

طلع البدر في دجا الشعر وسقى الورد نرجس الخفر

غادة تاهت الحسان بها وزها نورها على القمر

هي أسنى من المهاة سنا صورة لا تقاس بالصور

فلك النور دون أخمصها تاجها خارج عن الأكر

أن سرت في الضمير يجرحها ذلك الوهم كيف بالبصر؟

لعبة ذكرنا يذوبها لطفت من مسارح النظر

ومن ذلك قوله في ترجمان الأشواق:-

غـــادروني بالأثيـــل والنقـــا   أسـكب الـدمع وأشـكو الحرقـا
بـــأبي مـــن ذبـــت فيــه كمــدا   بـــأبي مـــن مـــت منــه فرقـــا
حمـــرة الخجلـــة فـــي وجنتـــه   وضــح الصـبح ينـاغي الشـفقا
قـــوض الصـــبر فطنـــب الأســـى   وأنـــا مـــا بـــين هـــذين لقـــى
مـــن لبثـــى مـــن لوجـــدي دلنـــي   مـــن لحزنـــي مـــن لصـــب عشـــقا؟
كلمـــا ضـــنت تبـــاريح الهـــوى   فضـــح الـــدمع الهـــوى والأرقـــا
فـــإذا قلـــت: هبـــوا لـــي نظـــرة   قيـــل: مـــا تمنـــع إلا شـــفقًا
مـــا عســـى تغنيـــك مـــنهم نظـــرة   هـــي إلا لمـــح بـــرق برقـــا
لست أنسى إذ حدا الحادي بهم   يطلـــب البـــين ويبغـــي الأبرقـــا
نعقـــت أغربـــة البـــين بهـــم   لا رعـــى الله غرابـــا نعقـــا
مـــا غـــراب البـــين إلا جمـــل   ســـار بالأحبـــاب نصـــا عنقـــا

ولا ينكر منكر رقة هذه الأبيات وعذوبتها ولطف معانيها، ولو أنها انصرفت إلى القول الحسي لصورت كل ما يمكن تصويره من ألم البعد والفراق إلى جانب التحسر على جمال المحبوب الذي اصطبغت وجنته بحمرة الخجل، ويود لو يفديه بروحه وبأبيه، إلى غير ذلك من معاني الحب وأفاعيله في الأرواح والقلوب، ولقد عرض ذلك في صور تغشها العاطفة ويقويها الخيال، فهو قد ذاب من ألم

الفراق، وهو قد صور الصبر خيمة قوضت، وصور الأسى مقيما، وجعل الدمع فاضحا هواه، ونظرة المحبوب ما هي الا برق يبرق، وحمرة الخجل في الوجنة البيضاء ما هي الا اجتماع الشفق ببياض الصبح.

ولكنها منصرفة إلى المعاني الروحية التي يوضحها الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل بقوله:-

«وابن عربي يشير إلى الروحانيات بالمغادرين والمسافرين، وحزنه وكمده ودمعه وخوفه كل ذلك من مفارقة الروحانيات اللطيفة لجسده الثقيل، وتركها له مرتهنا بهيكله مقيدا فيه، وهو يستغيث بالروح الكلي ليظل قلبه متصلا بالتنزلات الالهية التي تبعثه وتحييه والإشارة بمعالم الجمال إلى التجلي على القلب ووقع الاستحياء فيه من هيبة التجلي، وليس الصبر والأسى الا لفحات من الشوق تصيب القلب فلا يحتملها الا بما يعين، وهو كلما حاول القيام في مقام الكتمان ألجأه الشوق إلى البوح والاعلان، وإذا لم ينطق به لسانه نطقت جفونه، وإذا تمنى نظرة منع منها. وهو يحسب أنه منع قهرا، ولكنه أشفاق به، وإذا أرخيت الحجب بين السبحات وبين الخلق فرحمة بهم واشفاقا عليهم، ولو رفعت هذه الحجب وكشفت هذه الستور لأحرقت سبحات وجهه».

«والنظرة الواحدة لو تمكن الإنسان منها مطغية تثير النفس إلى نظرة أخرى يعدها، ومثلها في فعلها بالقلب مثل فعل ماء البحر بالظمآن كلما شرب ازداد عطشا. ولم ينس الصوفي الروحانيات التي جالسته في الله تعالى ثم عرجت إليه شاهدة الروحانيات التي جالسته في الله تعالى ثم عرجت إليه شاهدة بفعله وجهده ودأبه في العبادة والطاعة، وكان عروجها إلى الأبرق إشارة إلى المشهود الذاتي، وأما الإشارة بالبرق فللنور الذي ينسكب خاطفا ثم يسرع زائلا عن الحضرة والمكان.

«والتكنية بالأغربة عن الأمور التي خلفته عن العروج مع هذه الروحانيات وتركته مقيما في حبس الجسد لا يسمو إلى مقام العبودية التي هي غاية السمو والارتقاء، وليست مراكب هذا السمو إلا الهمم التي أعدت للوصول، فمن بذلها وركب نجائبها سارت به إلى المكانة التي تنعدم فيها الأسماء وتضمحل الرسوم وتفيض النعم والتجليات من الحي القيوم»(٩٢).

ولقد دعا ابن عربي السامعين والقارئين ألا يقفوا عند حدود ظاهر الألفاظ، بل عليهم أن يتعمقوا في فهم مضمونا وأسرارها حتى يدركوا ما فيها من جمال وأذواق وهو يقول في ذلك:-

---

(٩٢) منبر الإسلام عدد جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ.

كــل مــا أذكــره ممــا جــرى   ذكـــره أو مثلــــه أن تفهمـــا
منــــه أســـرار وأنـــوار جلـــت   أو علـت جـاء بهـا رب السـما
فاصـرف الخـاطر عـن ظاهرهـا   وأطلــب البــاطن حتــى تعلمـا

ولقـد صـاغ ابـن عربي فـي مختلف معاني الحب، فمـن ذلـك قوله في النحول:-

صـــــيرني حبـــــك معقـــــولا   بحكمــــه وكنـــت محسوســـا
لطفــت حتــى لا يرانــي الهــوى   فلـم يجـد عنـدي تعريسـا[٩٣]

ومـن قولـه فـي اتحـاد المحـب فـي الهـوى وهـو مـن المعـاني الدقيقة:-

إن الهــوى مــا أنــا للحــب حاملــه   والحكم للحب في الأشخاص ليس
مثـل الصــفات لــدى قــوم أشــاعرة   فلا الهوى هـو غيـري لا ولا هـو أنـا
إن الهـــوى وأنـــا بـــالعين متحـــد   فـإن أمــت وجـدا أو أعـش فبنـا
لــولا الجمــال الــذي بالحــب كلفنــا   لم يهلك الوجد قلب الصب والبدنا
إن "النظــام" لتــدري مــا أفــوه بــه   وقـد أشـرت إليهـا مـرة "بمنـى"[١]

وله في معنى معاتبة القلب والبصر.

([٩٣]) محاضرة اللأبرار جـ ٢ ص ١٥٠.

(١) محاضرات الأبرار جـ ٢ ص ١٥٠.

تقول عيني لقلبي: إن فكرك قد رمــى الجفــون بــدمع الوجــد

فقال قلبي لطرفي: لا تقول كذا بل أنت عرضتني للفكر بالنظر

لــولا الجمــال الــذي ألقــت هواه في خلدي لم تبل بالفكر

فالعتب للقلب جود من معاتبة وإنما العتب في التحقيق للبصر

وهـا أنـا حكـم بالعـدل بينهمـا لعلمنا بالـذي فيـه مـن الخبـر[١]

ولابن عربي قريحة شعرية تعينه على الارتحال، فقد حدثوا أنه قال مرة هذا البيت:-

يـــا مـــن يرانـــي ولا أراه كـــم ذا أراه ولا يرانـــي

فأنكر عليه أحد تلامذته ذلك وقال له: كيف تقول: إنك تراه ولا يراك؟ فأنشد على الفور مرتجلا:-

يـــا مـــن يرانـــي مجرمـــا ولا أراه آخـــــــــذا

كـــم ذا أراه منعمـــا ولا يرانـــي لائـــذا

شعره في التصوف العلمي:-

وقد نظم "ابن عربي" في جميع فنون التصوف، ومن بين ذلك ما نظمه في الدعوة إلى الأخلاق والزهد وايثار الآخرة على الأولى والتشوق إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ذلك قوله يرغب في فعل الخير:-

لا تندمن على خير تجود به وإن أغاظك من تعطيه واقترفا

فالله يرزق من يعطيه نعمته سواء أنكرها كفرا أو اعترافا

ويدعو إلى الاخلاص في العمل والبعد عن الرياء قائلا:-

إن كنـــت لـــي أكـــون لـــك   مـــا أنـــت لـــي مـــا أنـــا لـــك

فاصـــغ إلـــى قـــولي تجـــد   صـــحة مـــا قـــد قلـــت لـــك

ولتلتـــــــــزم طريقتـــــــــي   واجهـــد وخلـــص عملـــك

تنـــل بمـــا جئـــت بـــه   مـــن كـــل خيـــر أملـــك

وكتب إلى صاحب به ببلاد الروم اسمه "إسحاق بن محمد من أصحاب السلطان ممن تخدمه الدولة وتظهر به السنة:-

إسحاق فاسمع لوعظ من أخي ثقة ولا يغرنك تقريب السلاطين

إن الملوك قد استغنوا بملكهم عنا وعما بأيديهم من الدين

فاستغن بالله عن ملك الملوك وعن سؤال من هو مسكين ابن مسكين

فالله يكفيك يا عيني ويا ولدي شر الملوك وأشرار الشياطين

ومن شعره الذي يدل على التأمل والنظرة الصائبة قوله عن الموت:-

شـاب فـؤادي وشـب الأمـل ومضـى العمـر وجـاء الأجـل

عســكر المــوت لنــا منتظــر فــإذا ســرنا إلــيهم رحلــوا

ليــت شــعري ليــت شــعري هـل دورا إنني بعدهم منتقل؟

فـي فنـون اللهـو أفنـى طربـا غـــافلا عمـــا لـــه انتقـــل

وله في معنى المحاسبة وإضافة الأعمال إلى الله تعالى، إذ لا فاعل الا هو ما ورد في محاضرة الأبرار:-

تحاســـبهم بمـــا فعلـــوا ومــا فعلــوا الــذي فعلــوا

وتطلـــبهم بمـــا عملـــوا وأنــت خلقــت مــا عملــوا

فهـــل تنجـــيهم حجـــج؟ وهـــل يزكـــو لهـــم عمـــل؟

لـــئن أخـــذوا بمـــا عملــوا فـــأعظم منـــه مـــا جهلـــوا

وهو ينظر على قوله تعالى «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» وقوله: «والله خلقكم وما تعملون» وهو يمتدح المصطفى ولكنه لا يجري على قاعدة المدح التقليدي، بل يتجه اتجاها صوفيا ينظر فيه إلى أثر الرسول في نفسه، وإلى رحمته التي شملته لأنه من المؤمنين وقد جعل الله الرسول بالمؤمنين رءوفا رحيما ويقول في ذلك:-

مدحت المصطفى فمدحت نفسي ولي قسم وما جاوزت قسمي

فأعمـــالي تـــرد علـــى منـــه ولـو أرمـى فعيني منه أرمي

وقــد عصـــم الالـــه بـــه وجـــودي فإن أرمي بسهم ليس يصمي

وهـــذي رحمـــة منـــه توالـــت لـدى بها يعود على سهمي

وظنـــي لـــم يـــزل ظنًـــا جمـــيلًا فـإن الظـن منـه عـين علمـي

وهـو ينظـر إلى النبي المصـطفى نظـرة عظيمـة تزكيهـا وراثتـه لـه، ودليله في هذه الوراثة اتباعه شريعته التي جاء بها، ويقارن بينه وبين نبي الله موسى عليهما السلام، ويبين أفضلية محمد صلى الله عليه وسلم، بأن محمد أسرى وعرج به أما موسى فقد كلم فقط.

ورثــت الهاشــمي أخــا قــريش بأوضـح مـا يكـون مـن الـدليل

أبايعــه علــى الإســلام كشــفا وايمانـــا لالحـــق بالرعيـــل

أقـــوم بـــه وعنـــه إليـــه حتـــى أبينـــــه لأبنـــــاء الســـــبيل

سرى في النور حتى كان أدنى مـن القوسـين فـي ظـل ظليـل

وشـرف بـالكلام أخـوه موسـى علـى كثـب وذلـك بالمسـيل

وأيـــن العـــرش مـــن واد بقـــاع كمـا أيـن الكلـيم مـن الخليـل؟

وبتشوق ابن عربي إلى الكعبة وإلى الروضة الشريفة، فيصوغ في ذلك دررا غوالي تجمع بين الشوق والتكريم الصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فيقول:-

يا حبذا المسجد من مسجد وحبـذا الروضـة مـن مشـهد

وحبـــذا طيبـــة مـــن بلـــدة فيها ضريح المصطفى أحمد

صـــلى عليـــه الله مـــن ســـيد لـولاه لـم نفلـح ولـم نهتـد

قـــد قـــرن الله بـــه ذكـــره فـي كـل يـوم فـاعتبر ترشـد

عشـــر خفيـــات وعشـــر إذا أعلـن بالتـأذن فـي المســجد
فهـــذه عشـــرون مقرونـــة بأفضـل الـذكر إلـى الموعـد

وتشوق ابن عربي إلى الكعبة تغذية الأسرار الروحية التعبدية، فتلهب ذلك الشوق وتحيي، فلا ينطفئ حتى بمشاهدة الكعبة وطوافه حولها، وهو يقول في ذلك:-

اني إلى الكعبة الغراء مشتاق فيها لعاشقها في السر أعلاق
إذا تذكرت أسراري ومشهدها فيهـا تحركنـي للبـين أشـواق
الله يعلـم أنـي لسـت أذكرهـا الا وعندي لذاك الذكر احراق
فـالروح تائهـة والـنفس والهـة والقلب محترق والدمع مهراق

ويدعوا ابن عربي إلى اكتساب الحلال في الرزق على طريقته في تفسير المعاني تفسيرا صوفيا دقيقا، يشير إلى وجوب أدراك الأسرار الإلهية في كل شيء فيقول:-

في شهوة البطن سر ليس يعلمه إلا الـذي شـاهد الـرزاق رزاقـا
لـولا الغـذاء ولـولا سـر حكمتـه ما لاح فرع ولا عانيت اعراقا
فكل حلالا إذا كان المحلل مو جـودا بقلبـك وهابـا وخلاقـا

وابن عربي يعلل دوران الزمان واختلاف الفصول تعليلا صوفيا، يدركه العاقل الذي أدرك سر الحركة في الوجود كله، لم يحققها على

رأي الأستاذ سيد الأهل سباق في نظرته تلك التي لم يحققها العلم الا حديثا، وهو يقول في ذلك:

أتاك الشتاء عقيب الخريف وجاء الربيع يليه المصيف
ودار الزمان بأبنائه فمن دوره كان دور الرغيف
سرى في الجسوم بأحكامه تغذي اللطيف به والكثيف
عجبت لهم جهلوا ربهم ويسعى القوى له والضعيف
فأصبح كالماء في قدره لديهم وفي الماء سر لطيف

وابن عربي في أدبه عميق الفكرة دقيق المعنى، لا ينظر إلى ظواهر الأشياء ولكنه يتعمق إلى خفاياها، فيستنبط منها أسرارا عجيبة وأحكاما غريبة، وكم من آكل وشارب، وكم من مشاهد لتقلب الأيام واختلاف الفصول، ولكن قليلا من هؤلاء هم الذين فطنوا إلى الحكمة من هذا وذاك.

ابن عربي والموشحات:

وابن عربي كشاعر شارك في النهضة الأدبية التي كانت شائعة في الأندلس، وسلك بنظمه كافة الاتجاهات الشكلية التي استعملها الشعراء حينذاك، ومن بين ذلك الموشحات التي ازداد خطرها في الأندلس وأصبحت لها مكايتها، وافتن الشعراء فيها افتنانا كبيرا،

وأصبحت مجال سبق بينهم، ومن نماذج موشحاته التي استشهد بها المقري قوله:-

مطلع:	ســـرائر الأعيـــان	لاحت على الأكوان	للنـــــــاظرين
	والعاشــق الغيــران	مـن ذاك فــي حــران	بيــدي الأنــين
دور:	يقـــول والوجـــد	أضـــــناه والبعــــد	قـــد حيـــره
	لمــا دنــا البعــد	لــم أدر مـــن بعــد	مـــن غيـــره
	وهـــيم العبـــد	والواحـــد الفـــرد	قـــد خيـــره
	في البوح والكتمان	والســـر والإعـــلان	فــي العــالمين
	أمــا هــو الـديان	يــا عابــد الأوثــان	أنــت الضـنين
دور:	كـل الهـوى صعب	علــى الــذي يشــكو	ذل الحجــاب
	يـا مـن لـه قلـب	لـــو أنـــه يـــذكو	عنـد الشـباب
	قـد قـرب الـرب	لكنـــــه افـــــك	فــانو المـآب
	ونــاد يــا رحمــن	يـــا رب يـــا منـــان	انـــي حـــزين

ولا يخفى معرفة ما تدور حولها هذه الموشحة من معان صوفية روحية، وفي الحقيقة لا يمكن الحكم على أدب "ابن عربي" بعيدا عن تصوفه، لأن الأدب انما هو ترجمان الفكر، وإذا حكمنا غزارة الإنتاج إلى عمق أفكار "ابن عربي" وجدناه في الأدب فارسا لا يشق له غبار. هذا إلى جانب تمكنه القوي في أن يعبر عن الحقائق

العلمية بأسلوب أدبي منظوم أو منثور وكتبه العددية غاصة بذلك اللون. والمقام يضيق عن عرض نماذج من ذلك.

نثر ابن عربي:

وللشيخ الأكبر نثر في القمة الأدبية، وكتابه "الفتوحات المكية" خير نموذج لذلك، وهو يعد دائرة معارف للعلوم الصوفية إلى جانب ما يتميز به من سرد الحوادث في أسلوب سهل متناسق، ولا يغفل جانب التشويق في بعض ما يعرضه من قصص، ويحتوي الكتاب أيضا على نماذج مختلفة منها الوصايا والرسائل والحكم والمواعظ والمعارف الصوفية المختلفة، وقد سبق عرض بعض نماذج من أسلوبه القصصي في هذا الكتاب، ومن نماذج أدبه الوصفي ما سيأتي بعد في بيان صفة العارف. عند الحديث عن كتاب الفتوحات.

وفي نثره قد يلجأ إلى استعمال السجع والزخرف اللفظي كما نرى في هذه القطعة التي يكتب بها مقدمة "مواقع النجوم": «لما شاء الله الحق – سبحانه وتعالى – أن يبرز هذا الكتاب الكريم إلى الوجود، ويتحف خلقه بما اختاره لهم من لطائفه وبركاته في خزائن جوده، على يدي من يشاء من عبيده، حرك خاطري انضاء المطية– من مرسية إلى المرية. فامتطيت الرحال، وأخذت في الترحال، مرافقا أطهر عصبة وأكرم فتية... فلما وصلتها لأقضى أمورا أملتها، تلقاني

شهر رمضان بهلاله، وصافحني على مسامرته بها إلى أوان انفصاله، فألقيت بها عصا التسيار، وأخذت في الذكر والاستغفار»[٩٤]..

ونرى استعمال هذا الأسلوب الزخر في بعض الكتب الأخرى– وهو أسلوب هذا العصر –مثل شجرة الكون، ومحاضرته الأبرار، وشرح ترجمان الأشواق.

ومن نماذج نثره الذي يجمع بين الرسالة والوصية كتابه إلى الملك كيكاوس صاحب بلاد الشمال، ردا على رسالته التي أرسلها إلى الشيخ الأكبر يستشيره في بعض الأمور: «بسم الله الرحيم، وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله العزيز أدام الله عدل سلطانه إلى والده الداعي له محمد بن العربي، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية، والنصيحة السياسية الالهية، على قدر ما يعطيه الوقت، ويحتمله الكتاب إلى أن يقدر الاجتماع ويرفع الحجاب، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين، وقد قلدك الله هذا الأمر، وأقامك نائبا في بلاده ومتحكما بما توفق إليه في عباده، ووضع لك ميزانا مستقيما تقيه فيهم، وأوضح لك حجة بيضاء تمشي عليها وتدعوهم إليها، على هذا الشرط ولاك، وعليه

(٩٤) مقدمة مواقع النجوم.

بايعناك فإن عدلت فلك ولهم، وان جرت فلهم وعليك، فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا».

والمتأمل في أسلوب الرسالة يجدها غير متكلفة، ويظهر فيها أثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما تغلب عليها المعاني الدينية والصوفية التي هي موضوعات كتبه كلها.

كما أننا نحكم منها على علو منزلته في نفوس الحكام ورغبتهم في استشارته والأخذ بنصيحته وندرك منها حرصه على إسداء النصح لمصلحة المسلمين ما أمكنته الفرصة لذلك محملا الحكام مسئولية تقصيرهم نحو رعيتهم. وهذا منتهى الشجاعة الأدبية.

منزلة ابن عربي الأدبية:

لسنا في حاجة إلى إدراك منزلة "ابن عربي" الأدبية التي وضعته في القمة بين أدباء المشرق والمغرب، بل أصبح أحد الذين تمكنوا بمنزلتهم من التأثير في الجو الأدبي الشرقي وقد جعله صاحب كتاب "الشعر الأندلسي" بصفة خاصة عاملا هاما في ذلك التأثير ويقول في ذلك: أصبح أعلام الأندلس يخرجون «بزاد حافل من المعارف ينشرونها في أقطار نائية، ورجال مثل الحسين بن جبير، ومحمد بن احمد الصابوني وابن خروف سينقلون دور الشعر الأندلسي إلى آفاق

بعيدة. أما الششتري المتوفى سنة ٦٦٨هـ ومحيي الدين بن عربي بصفة خاصة (٥٦١-٦٣٨هـ) فسينقلان إلى مدائن الشرق المشرق ما كان يفيض به قلباهما من حرارة الشوق الإلهي، وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة، وسيقضيان أيامهما في مكاشفة الدراويش ومقاسمتهم العيش»[٩٥].

ويقول الدكتور "محمد مصطفى حلمي" عنه: لقد خلف "ابن عربي" تراثا رائعا في الحب الالهي أشرقت بالأنوار الإلهية صفحاته وعبقت بالأسرار القدسية نفحاته[٩٦]

أما الدكتور زكي مبارك فيقرر عنه أنه «فتح الباب أمام الدارسين من الصوفية والفقهاء فكانت كتبه مبعث نهضة أدبية قليلة الأمثال.. ان ابن عربي لا تعرف أهميته في عالم الأدب والأخلاق إلا إذا فكرنا جديا فيما ترك من الثروة الأدبية والأخلاقية، يجب أن نتذكر أنه ترك ألوف الصفحات ومئات القصائد وأنه راض اللغة على الطواعية للموز والإشارات»[٩٧]. وتلك براعة من غير شك.

هذا رأى أدباء العصر الحديث ونقادهم، أما آراء من سبقوهم في أدب "ابن عربي" فتظهر في تقريظهم له، ومن ذلك قول ابن

---

(٩٥) الشعر الأندلسي لأميلو فرسيه غومس-ترجمة حسين مؤنس-ص ٣٤.

(٩٦) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٣.

(٩٧) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق جـ١ ص ٢٠٣.

الأبار عنه: «إنه أخذ عن مشيخة بلده ومال إلى الآداب» وقول ابن النجار «له أشعار حسنة وكلام مليح، اجتمعت به في دمشق » في رحلتي إليها وكتبت له شيئا من شعره» وقول ابن مسدي: «انه كان جميل الجملة والتفصيل، وله في الأدب الشاو الذي لا يلحق والتقدم الذي لا يسبق» وجاء في عنوان الدراية «هو فصيح اللسان بارع فهم الجنان، قوي على الإيراد كلما طلب الزيادة يزاد» وقال المقري: «ونظم الشيخ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له».

كل ذلك يلقى الضوء على هذه الشخصية الأدبية الرائعة التي كان صاحبها يعتز بالكتاب والعلم والأدب أيما اعتزاز.

ابن عربي الصوفي

التصوف ليس علمًا مكتسبًا:

لقب ابن عربي بالشيخ الأكبر كما لقب بسلطان العارفين، وهذان اللقبان لم يطلقا عليه اعتباطا، ولكنهما أطلقا عليه عن جدارة فائقة بناء على ما وصل إليه من مكانة رفيعة في التصوف وعلومه وأذواقه.

والتصوف في حقيقة الأمر ليس علما مكتسبا يستطيع الإنسان أن يحصله بالقراءة، ولو أفنى في ذلك زهرة شبابه ونضارة حياته، ولكن التصوف ذوق يكتسب بالعمل والسلوك والتهذيب النفسي والخلقي. وحين ذلك تثمر هذه المجاهدة أحوالا وأذواقا. قد يعبر عنها الصوفي أو لا يعبر.

ولن يهتدي العقل إطلاقا وحده إلي المعرفة الصوفية وحقيقتها بدون سلوك ومجاهدة، وهذان لابد لهما من إرشاد شيخ عارف بصير خبير بمسالك الطريق ودروبه وشعابه.

والتربية في الطريق الصوفي أمر له أهميته، ويعول عليها الصوفية تعويلا كبيرا، ولا يكاد يوجد فذ من أفذاذ الطريق دون أن يكون له

موجه ومرشد يدله على طرق الجهاد ووسائله حتى ينتصر ويدرك ويبصر.

ولقد بلغ «الغزالي» أعلى المنازل العلمية، وتبوأ عرش المعارف الفكرية، وقرأ كثيرا من كتب التصوف، ولكنه لم يصبح صوفيا إلا منذ أن أخذ بيده شيخه «يوسف النساج» إلي طريق الخير، وفتح عيونه على مغاليق المعرفة، فأدرك ما لم يكن يدور في خلد، وما لم يكن له في حسبان.

والمعرفة الصوفية أسرار أكنها الله واختص بها أصفياءه وجعل الطريق إليها محفوفا بالمخاطر والمعوقات، ولن يتمكن من سلوكه إلا من وطد عزمه على اجتيازه، وجاهد جهادا شاقا، حتى إذا ما انتصر في جهاده ارتفع الحجاب الكثيف الذي غطى على بصره وبصيرته، فأدرك من الحقائق في نفسه وفيما يحيط به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والقرآن الكريم يزكي ذلك بقوله: «واتقوا الله ويعلمكم الله» والحديث الشريف يقول: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم.

وليس غريبا أن يكون للسلوك القويم أثر في تهذيب الوجدان وفي تصفية النفس وتنقيتها وأجلاء مرآتها فتدرك من المعاني أعمقها وتلهم من الأسرار أدقها. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم

قوله: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه فإنما يلقن الحكمة». وقيل: «إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله تعالى به ملكا يغرس الحكمة في قلبه»(٩٨).

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود في هذا المعنى «التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية، إن الوسيلة إليه ليست هي الثقافة، ولكن الوسيلة إليه إنما هي العمل، أن الطريق إليه إنما هو السلوك. والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هي الهام وهي كشف وهي ملأ أعلى انعكس على البصيرة المجلوة، فتذوقه الشخص حالا وأحس به ذوقا وأدركه إلهاما وكشفا»(٩٩).

والدكتور عبد الحليم محمود يقرر هذا الكلام حين يتحدث عن عدم تأثر سيدي أبى الحسن الشاذلي بمصادر أثرت في سلوكه أو اتجاهه أو ذوقه، بناء على أن التصوف لا يدرك بالتلقين أو البحث أو الدراسة ولكن حقائقه تورث بالعمل والسلوك والمجاهدة، وان كان ذلك يحتاج الى مرشد وموجه يأخذ بطريق المريد حتى يمسك بزمام نفسه، ثم يقول له: ها أنت وربك، وهذا كما فعل «ابن مشيس» مع «الشاذلي» رضي الله عنهما.

---

(٩٨) الرسالة القشيرية.

(٩٩) أبو الحسن الشاذلي ص ٢٠٨.

كيف تكونت شخصية «ابن عربي» الصوفية؟

وهذا الكلام مفيد نصل منه إلى ما نريد، وهو الإجابة على هذا السئوال: كيف تكونت شخصية ابن عربي الصوفية؟.

تكونت شخصية ابن عربي بواسطة جهاد شاق مرير متواصل تعددت ألوانه وطرقه ولم تخرج على النمط الصوفي المعروف، وهو القيام برياضات مختلفة تتنوع بين العزلة والسياحة والجوع والصمت والذكر والتفكر ومجالسة الصالحين واختيار الرفقاء وحمل النفس على ما تكره من أنواع المشقة في ضوء الالتزام بالشرع الحنيف.

وتم ذلك بتوجيه وإرشاد ظهر من سلسلة الشيوخ الذين التقى بهم ابن عربي وانتفع بنصحهم. وقد سبق الإشارة إليهم.

ولم يغفل في طريق ذلك الإفادة من الكتب الصوفية التي وضعها بالهام من الله كبار الصوفية، وفي مقدمة ذلك.. الرسالة القشيرية.. التي لا تزال مرجعا هاما في التصوف ومؤلفها الإمام العالم أبو القاسم بن هوزان القشيري المتوفي سنة خمس وستين وأربعمائة. وقد صرح «ابن عربي» انه قد أفاد منها في بدء سلوكه الطريق[١٠٠]. وكتاب «ختم الأولياء للحكيم الترمذي» وقد كان هذا الكتاب مثار

---

(١٠٠) ابن عربي ص ١٠٥.

اهتمام الصوفية ومحيي الين بن عربي بصفة أخص[١٠١]. وألف حوله كتابا يجيب فيه عن الأسئلة التي طرحها هذا الحكيم في كتابه.

وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، وأهميته لا تخفى على أحد، وقد ألقى فيه «ابن عربي» دروسا عامة في مكة[١٠٢].

كما قرأ كتبا أخرى أشار إلى بعضها في مقدمة كتابه محاضرة الأبرار وذكر منها: مقامات الأولياء لأبي عبد الرحمن السلمي، وطبقات الصوفية للسلمي أيضا، وكتاب العزلة للخطابي وكتاب النور وكتاب درجات التائبين ومقامات القاصدين للهروي، وكتاب حلية الأولياء لأبي نعيم وغيرها.

هذه الكتب التي قرأها «ابن عربي» كان لها أثر من غير شك في توجيهه إلى جانب شيوخه الذين التقى بهم.

سلك "ابن عربي" الطريق الصوفي صغيرا، فقد كان الحافز الروحي يدفعه دفعا منذ صغره، وقبل أن يموت والده كان قد اتجه إلى القيام ببعض الرياضيات المختلفة ومن بينها العزلة، مما أثار اهتمام "ابن رشد" كما سبق الإشارة إلي ذلك. ولكن «ابن عربي» كان قد أخذ بحظ وافر من العلوم الشرعية، وبلغ في اكتسابها مبلغا كبيرا. فقد كان تصوفه مبنيا على هدى ويقين، وعلى أساس متين من

(١٠١) أبو الحسن الشاذلي ص ٥٢.

(١٠٢) ابن عربي ص ٢٦٣.

الشرع الحنيف، و «ابن عربي» يقرر مرارا أن تصوفه خال تماما من أي اتجاه آخر غير الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، ولذلك نراه يكره التقليد، وقد أشير إلى ذلك. وعلمه هذا جعله علما في علوم الظاهر قبل أن يصبح علما في علوم الباطن، وهو الذي أنار له الطريق ليكون سلوكه عن معرفة وثبات وعزم، وليكون ذلك عاصما له من الزلل أو الرجم بالغيب أو الخطأ.

وأتاحت له فرصة تعرفه على شيوخ الصوفية تمرسه بآدابهم وقيامه عمليا بأنواع المجاهدات التي أخذ بها نفسه حتى تمكن من الانتصار على نفسه، ومن نقطة الانتصار على النفس كانت انطلاقته العليا إلى فضاء الروح الواسع غير المحدود بقيود المادة والحس.

وقد سبق الإشارة إلى أن صحبة الشيوخ مفيدة في توجيه السلوك، وليس الشيخ مؤثرا في المريد بقدر ما هو موجه لسلوكه، حتى يوقفه على مسالك الطريق، ثم يهتف به: أن انطلق فقد أصبحت على يقين من خطوك.

وليس أدل على ذلك من أن كثيرا من التلاميذ فاقوا أساتذتهم ذوقا ومعرفة وإدراكا ووصلوا إلى مقامات قصرت عنها همم مرشديهم وموجهيهم، وما ذلك بغريب، فالفروع قد تفوق الأصول، والأبناء قد يسبقون الآباء، ولو وقفت همة مريد عند همة شيخه لما كان هناك

مكـان للطمـوح، ولمـا أصـبح مجـال للتقـدم والسـبق، ولتوقفـت الخطوات عند مكان ما لا يبرحه هذا أو ذاك.

و«ابن عربي» تلميذ نجيب من غير شك صاحب شيوخه فانتفع بإرشادهم واستفاد منهم سلوكا كان له أثره الطيب المحمود فيما وصل إليه من الهام ومعرفة.

والطريـق الصـوفي مجاهـدات ومعـارف، والمجاهـدات طريـق المعارف، والمعارف ثمار المجاهدات، وهؤلاء الشيوخ وغيرهم الذين التقى بهم «ابن عربي» كان لهم أثرهم الذي أوضح الرؤية أمام عينيه، وجعله يتقدم في طريقه الذي اختاره لنفسه بخطوات ثابتة، وقطعت الطريق على كل شك خالج نفسه في صدر حياته الولي، ولم يكن لأحد هؤلاء الشيوخ إملاء خاص مذهبي فرضه على «ابن عربي» الذي ما لبث أن أصبحت له شخصيته المستقلة التي انطلقت تجوب الآفاق، تلتقي بالرجال، وتأتلف بالإخوان، وتوطد المكانة التي ظفرت بها على مر الزمان.

تمسكه بالشرع:

وكـان «ابـن عربـي» طـوال حياتـه دقيقـا فـي تمسـكه بالشـرع الجنيف، ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة على آدابه، وكان يعتقد اعتقادا جازما أن الخروج على الشرع حرمان وزيغ ومخافة، كما كان

يعتقد أن الطريق السليم لإدراك المعرفة الصافية هو طريق الشرع لا طريق العقل، ويقول في ذلك:

لا تعتقد غير الذي تتلوه في	**النص الذي نطق الكتاب المحكم**
وعليه فاعتمدوا وقولوا مثلما	**قد قاله عن نفسه واستلزموا**
واعبد اله الشرع لا تعبد اله	**العقل من هادوا إليه وسلموا**
فالناس مختلفون في معبودهم	**فمنزه معبوده ومجسم**

وهذه الأبيات تعطينا صورة حقيقة عن حياة الشيخ الأكبر، هي اعتزازه القوي بالشرع، واعتماده في إدراك العلم على الذوق والكشف لا على العقل، ولذلك لم يعول إطلاقا على الفلسفة، ونفر منها نفورا شديدا، وقد مر بنا كيف كانت مقابلته لابن رشد فيلسوف زمانه وكيف رثى لحاله، وكيف أتهم أحد الفلاسفة بالكفر حينما رآه يقول في أحد كتبه: وأنا أريد في هذا الفصل أن ننظر كيف نصنع إلها في العالم.

ولكن نفوره من الفلسفة لم يمنع أن يكون مرنا غير متزمت في مناقشة حججهم. ولذلك نسمعه ينصح في مقدمة الفتوحات بعدم المبادرة إلى إنكار أقوال الفلاسفة والمتكلمين إذ ربما يكون في كلامهم ما يوافق الشرع والعلم الصحيح، ويقول في ذلك: «إياك أن تبادر إلى إنكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلي مثلا، وتقول: هذا

مذهب الفلاسفة أو المعتزلة، فان هذا قول من لا تحصيل له، إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلا يكون باطلا، فعسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق، ولاسيما أن كان الشارع صلى الله عليه وسلم صرح بها، أو أحد من علماء الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتبا كثيرة مشحونة بالحكم والتبري من الشهوات ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خفايا، الضمائر، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرع، فلا تبادر يا أخي إلى الرد في مثل ذلك وتمهل، وأثبت قول ذلك الفيلسوف حتى تحد النظر، فقد يكون ذلك حقا موافقا للشريعة لكون الشارع قال تلك المسألة أو أحد من علماء شريعته»[١٠٣].

وهذه النصيحة العاقلة التي ترسم الطريق الصحيح لأدب البحث والمناقشة تحمل الإعزاز الكامل للشرع والإصرار على عدم مخالفته، وقبول كل ما يوافقه، وفي الأبيات التالية يوضح طريق العلم الصحيح، ويقرر أن العلم الموهوب لا يكون إلا بالحفاظ على الشريعة والتفاني في الطاعة والعبادة:

ما لقومي عن حديثي في عمي　　ما أظن القوم إلا ندما

أخذوا العلم عن الفكر وعن　　كل روح ما له علم بما

---

(١٠٣) اليواقيت والجواهر ص ٣٣.

عنـدنا مـن جهـة العلـم بـه جـل أن يفهـم أو أن يفهمـا

هكـذا قـالوا ومـا عنـدهمو خبـر الـذوق بعلـم العلمـا

فعلـوم القـوم مـن أنفسـهم وعلـومي مـن إلـه حكمـا

أنـه يعطـي الـذي يعلمـه لعبيـد لـم يزالـوا رحمـا

بيـنهم تبصـرهم قـد وقفـوا في المحاريـب وصـفوا القـدما

فهو يفرق بين العلم الذي يكتسبه الإنسان من العلماء وبين العلم الذي يهتدي إليه من الله، والعلم الثاني يفوق الأول، لأنه جاء عن طريق الذوق للحقائق وإدراك الأسرار، أما الأول فليس إلا صفات معلومة وسطورا مركومة، وهو يلوم قومه لأنهم لا يبحثون حديثه فيدركون صدقه ويعرفون أن علومه موهوبة وعلومهم مكسوبة، وفرق بعيد بين العلم الو هبي والعلم الكسبي، والله سبحانه وتعالى لا يهب علمه إلا لقوم خشعوا وتخلقوا بصفات المؤمنين الذين يقول في حقهم: رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا[١٠٤].

وطريق العلم الحقيقي المأخوذ عن الكشف والذوق هو تعظيم الشريعة وإجلالها وإقامتها إقامة صحيحة وهو يقول في ذلك:

تعظيم ربك في تعظيم ما شرعا فأصدع فإن سعيد القوم من صدعا

---

(١٠٤) منبر الإسلام عدد شوال ٣٨٦ هـ وصفر ٣٨٧هـ.

والشريعة هي الطريق الصحيح لتحصيل السعادة، وهذه القصة التي يقدمها لنا في الفتوحات يمكن أن تعطينا دليلا آخر على مدى تمسكه بالشرع. يقول: «رأيت في واقعة وأنا ببغداد سنة ثمان وستمائة قد فتحت أبواب السماء، ونزلت خزائن المكر الإلهي مثل المطر العام، وسمعت ملكا يقول: ماذا نزل إليه من المكر؟ فاستيقظت مرعوبا، ونظرت في السلامة من ذلك فلم أجدها إلا في العلم بالميزان المشروع، فمن أراد الله به خيرا وعصمة من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده..» (١٠٥).

وهو يلح على هذا المعنى كثيرا، فقد نقل ابن العماد عنه قوله «العارف يعرف ببصره ما يعرفه غيره ببصيرته، ويعرف ببصيرته مالا يدركه احد إلا نادرا، ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من نفسه فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربه؟ وهذا مما قطع الظهور سنستدرجهم من حيث لا يعلمون»(١٠٦).

وينقل الشعراني عنه قوله في الباب السادس والأربعين ومائتين من كتاب الفتوحات: «إياك أن ترمي ميزان الشرع من يدك في العلم الرسمي بل بادر إلى العمل بكل ما حكم به وان فهمت منه خلاف ما يفهمه الناس مما يحول بينك وبين إمضاء ظاهر الحكم به فلا

---

(١٠٥) ابن عربي ص ٦٩.

(١٠٦) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٦.

تعول عليه، فانه مكر الهي بصورة علم الهي من حيث لا تشعر، ثم قال: واعلم أن تقديم الكشف على النص ليس بشئ عندنا لكثرة اللبس على أهله، وإلا فالكشف الصحيح لا يأتي قط إلا موافقا لظاهر الشريعة، فمن قدم كشفه على النص فقد خرج عن الانتظام في سلك أهل الله ولحق بالأخسرين أعمالا»(١٠٧).

ويعلل الشيخ الأكبر لكون علوم الوهب لا تأتي عن روية وفكر بقوله «لو كانت علوم الوهب نتيجة عن فكر أو نظر لانحصرت في أقرب مدة، ولكنها موارد تتوالى من الحق على خاطر العبد، والحق تعالى وهاب على الدوام فياض على الاستمرار والمحل قابل على الدوام»(١٠٨). والتوالي لا يكون إلا بالمحافظة على الشريعة والاستمساك بإقامتها.

فهذه العوامل التي اجتمعت من استعداد «ابن عربي» لسلوك الطريق الصوفي، إلى جانب اجتماعه على شيوخ أعانوه على هذا الطريق، إلى جانب ما قرأ من كتب حببته في هذا الطريق، إلي جانب التزامه جانب الشرع في طريقه وعدم حيدته عنه، كل ذلك كون له شخصيته المستقلة العظيمة التي كان لها ذلك الإنتاج الصوفي الضخم عملا وعلما.

---

(١٠٧) اليواقيت والجواهر ص ٣١.

(١٠٨) الكبريت الأحمر ص ٦.

ثمار التصوف:

وسرعان ما ظهرت ثمار التصوف في حياة «ابن عربي» بناء على ذلك النهج الذي انتهجه.

ظهرت في صورة عزوف كامل عن الدنيا ولذاتها، فجر ذلك ينابيع الحكمة في قلبه، فانجلت عين بصيرته، وارتفعت حجب الكثافة البشرية فأبصر وأدرك، واستشف كثيرا من المعاني عن طريق الكشف أو الإلهام.

وبدأ ذلك الكشف عنده بواسطة الرؤى الصادقة التي ورد عنها الأثر الكريم: لم يبق من علامات النبوة إلا المبشرات، قيل: وما المبشرات؟ فقال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له.

وكثيرا ما رأى «ابن عربي» رؤى تحققت في عالم اليقظة كما رآها، ومن ذلك ما يقصه عن رؤياه التي رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم اقتلع من أحد شوارع «أشبيلية» التي يكثر المرور فيها نخلة كانت تعترض طريق المارة، فلما أصبح وجد تحقيق رؤياه.

وهناك أثر يقول: وحي المؤمن منامه..وذلك واقع وصدق ومتواتر فكثير من الناس تتحقق أمامهم في الحياة أشياء كانوا قد رأوا عنها أشارات أو رأوها بعينها في المنام.

وقد صاحبت هذه الرؤى الصادقة الشيخ الأكبر في حياته وزاد عليها ما كان يراه من تجليات، هي غريبة في عالم الحس والعقل، ولكنها ليست غريبة في عالم الحقيقة والكشف، ومن ذلك مشاهدته بعض الأشخاص يقتحمون عليه خلوته والباب مغلق عليه، فيحادثهم ويحادثونه ثم ينصرفون دون أن يفتح باب أو مصراع أو نافذة.

ثم يزيد على ذلك ما كان يصاحب جسده من إشراق في أثناء ذكره، ينبعث من باطنه حتى يبدد ظلام الحجرة التي يوجد فيها، وقد حدثت له هذه الواقعة في أكثر من مكان، ومنها «مصر» في أثناء زيارته لها.

ويزيد على ذلك أن يكون له لقاء خاص مع أرواح الأنبياء والأولياء والمؤمنين السابقين على أنحاء مختلفة يفصلها تلميذه «صدر الدين القونوي» بقوله: «كان شيخنا ابن عربي متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء الماضين على ثلاثة أنحاء: إن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسدا في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التي كانت له في حياته الدنيا، وإن شاء أحضره في نومه، وان شاء أنسخ عن هيكله واجتمع به»(١٠٩).

---

(١٠٩) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٦.

وقد أشار شارح الصلوات الادريسية إلى محادثة الشيخ الأكبر للنبي إدريس عليه السلام وإلى محادثته للنبي موسى، كما أشار هو إلى ذلك في مواضع مختلفة من كتاب الفتوحات، ومن ذلك قوله في الباب السابع والستين وثلاثمائة: «اجتمعت روحي بهارون عليه السلام في بعض الوقائع، فقلت له: يا نبي الله، كيف قلت: فلا تشمت بي الأعداء؟ ومن الأعداء حتى تشهدهم؟ والواحد فينا يصل إلي مقام لا يشهد فيه إلا الله؟ فقال لي السيد هارون عليه الصلاة والسلام: صحيح ما قلت في مشهدكم، ولكن إذا لم يشهد أحدكم إلا الله فهل زال العالم في نفس الأمر كما هو في مشهدكم؟ أم العالم باق لم يزل وحجبتم أنتم عن شهوده لعظيم ما تجلى لقلوبكم؟ فقلت: العالم باق في نفس الأمر لم يزل، وإنما حجبنا نحن عن شهوده، فقال: قد نقص علمكم بالله في ذلك المشهد بقدر ما نقص من شهود العالم فانه كله آيات الله، فأفادني عليه الصلاة والسلام علما لم يكن عندي»[110].

وقد تكون هذه المحادثة تمت على نحو من هذه الأنحاء المتقدمة.

وعلى نحو من ذلك كان لقاؤه المتكرر للخضر عليه السلام وقد أشار «ابن عربي» إلى هذا اللقاء عدة مرات.

(١١٠) اليواقيت والجواهر ص ٧٩.

وظهرت ثمار التصوف في غير ذلك، ظهرت في تلك الخوارق والكرامات التي كانت للشيخ الأكبر والتي يضيق المقام عن ذكرها، كما ظهرت في معارفه الفائقة التي فاضت بها أشعاره وامتلأت بها كتبه ومصنفاته.

خرقة التصوف:

ولابد أن يكون الشيخ الأكبر قد أصبح من الوجهة الرسمية صوفيا بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معان، والصوفي الرسمي هو الذي يلبس خرقة التصوف «وابن عربي» كانت له وجهة نظر حول هذه الخرقة أولا، فقد كان ينظر إليها على أنها إشارة لمعان وجدانية تهدف إلى تهذيب السلوك وقويم النفس والخلق، وهو يشير إلي ذلك بقوله: «وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن، فإن الخرقة عندنا إنما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلق، ولهذا لا يوجد لباسها متصلا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن يوجد صحبة وأدبا، وهو المعبر عنه بلباس التقوى» في قوله تعالى «ولباس التقوى ذلك خير».

وقد ارتدى «ابن عربي» خرقة الصوفية أكثر من مرة، فقد لبسها على يد شيخه على بن عبد الله بن جامع، وكان الخضر قد ألبسها بنفسه لهذا الشيخ، ولبسها «ابن عربي» في الموضع الذي ألبسها الخضر للشيخ.

كما لبسها قبل ذلك على يد شيخ آخر هو «تقي الدين عبد الرحمن بن علي بن ميمون النوروزي» والخرقة أيضا كانت خرقة الخضر.

ويذكر في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات أنه لبس الخرقة من يد الخضر نفسه تجاه باب الكعبة، وكان قبل ذلك لا يقول بلباسها[١١١].

وقد أضاف «ابن عربي» منذ ذلك الوقت إلى وجهة نظره الأولى حول الخرقة الادراكات الذوقية التي تصاحب الرداء الحسي، والتي يعبر عنها بقوله:- «جرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا واحدا من أصحابهم عنده نقص في أمر ما، وأرادوا أن يكملوا له حاله اتحد به هذا الشيخ، فإذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في ذلك الحال، ونزعه وأفرغه على الرجل الذي يريد

تكمله حاله، ويضمه فيسري فيه ذلك الحال، فيكمل له ذلك الأمر فذلك هو اللباس المعروف عندنا والمنقول عن المحققين من شيوخنا»[١١٢].

وهذا الكلام وإن بدا غريبا من جهة عدم إمكان حدوث اتحاد بين شيخ ومريد إلا أنه في عالم الحقيقة غير غريب، فإن الصفاء

---

(١١١) الكبريت الأحمر ص ١٤.

(١١٢) ابن عربي ص ٦٣.

الروحي الذي يكون بين شخصين تمازجا وتصافيا وصلح أن يقول أحدهما للآخر: يا أنا، يجعل الاتحاد الروحي غير مستحيل بينهما، ويصدق ذلك قول «أبي الحسن الشاذلي» لتلميذه «المرسى» رضي الله عنهما: «ما صحبتك إلا لتكون أنا وأنا أنت»[١١٣].

وقد اعتز «ابن عربي» بخرقة التصوف وألبسها بيده لكثير من مريديه، وقد أشار إلى ذلك في أشعاره ومؤلفاته.

وخرقة التصوف لها آداب وشروط، وهي ليست مجرد ثوب يلبس، ولكنها إشارة إلى منزلة من منازل القوم، فيها يوطنون أنفسهم على احتمال الأذى وإنكار الذات وإذلال النفس رغبة في إعزاز الروح وإضعاف النوازع البشرية طلبا للأنس الروحي، يقول الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل: «أما الصوفية فإنهم يلبسون الخرقة الظاهرة بحجة إبعاد أبصار الناس عنهم استجلابا لأذاهم واحتقارهم، وبقدر ما يصيبهم الأذى والاحتقار من الناس يدنون من الله ويلجئون إليه ويكون ذلك دفعا إليهم عن الأغيار»[١١٤].

وفي عبارة «ابن عربي» المتقدمة إشارة إلي ذلك، ولعل السر في أثر الخرقة يرجع إلى ما تحمله روح الشيخ من توجيه إلى روح اللابس فتتأثر بها وتحاول أن تحلق معها في أجواء المعرفة

---

(١١٣) طبقات الشعراني جـ ٢ ص ١٣.

(١١٤) منبر الإسلام–شعبان ١٣٨٦هـ.

والمشاهدات، ولذلك لم يسمحوا بارتداء الخرقة لكافة المريدين ولكنهم حين يشاهدون من احدهم استعدادا خاصا يكون هو المراد.

ولابس الخرقة من حقه أن يغبط حينئذ لأنه وصل إلي منزلة رفيعة وغاية كريمة، يقول «ابن عربي» معبرا عن ارتدائه خرقة التصوف عن طريق الرمز لنفسه باسم «شرف»:

سألت شرف أن نلبسها خرقة القوم على شرط الوفا

حين ثابت عندنا من كل ما كان منها قبل هذا سلفا

فأجبناها إلى ما سألت باعتقاد ووداد وصفا

وأمرناها بأن نلبسها كل من كان بخير عرفا

وهي لما لبستها سبحت: حسبي الله تعالى وكفى

فهو هنا يوضح أن نفسه حين لجأت إلى التوبة وتطهرت من المعاصي كان من حقها أن تسمى «شرفا» وأن تطلب ارتداء الخرقة لتصبح من القوم «وإنها لتستحق ذلك بعد التوبة والإشهاد عليها أمام الأتقياء واستمرارها على الطهارة والتوكل والرواح إلى الله وحده بقلب منيب ومثل هذه النفس يحق لها أن تطلع على أسرار القلوب، فتعرف منها الخير والذي لا خير فيه فتولى نحو الأول وتعزف عن الثاني، وانقطاعها إلى الله وحده والتسبيح بحمده دون الأغيار يكفيها في درجة المعرفة وييسر لها طريق الوصول»[١١٥].

---

(١١٥) منبر الإسلام – جمادى الأولى ١٣٨٦هـ.

مجاهدة وأذواق ومعارف

التصوف مجاهدة ومعرفة، والمعرفة ثمرة من ثمار المجاهدة، كما أن المجاهدة طريق لتحصيل المعرفة. وأي تعبير يدور حول المجاهدة والحث عليها هو صدى للتصوف العملي، كما أن التعبير عن الثمار التي تثمرها المجاهدة صدى للتصوف النظري.

والمجاهدة في الطريق الصوفي سلوك وأخلاق، فالسلوك يكون بالتزام ألوان خاصة من العبادة والطاعة يضاف إليها ألوان تختلف سهولة وعنفا من الرياضيات على حسب حالة السالك وما يرتئيه الموجه.

ولا تكاد تخلو طريقة من طرق الصوفية من ذلك الإلزام الذي تأخذ به مريديها في حزم يصلوا إلى الغاية المطلوبة.

ولن يتقدم المريد خطوة واحدة ما لم يكن له من الخلق زاد وراحلة.والصوفي يحتاج إلي ما يستحث خطاه ويقوي عزمه ويثبت إرادته، فكان لابد من تعبير أدبي يصاحبه في رحلته ويشد من أزره ويقيم معوجه ويعينه على عثرات الطريق، ويبين له آداب الطريق وما يجب أن يأخذ وما يدع.

أذواق ابن عربي ومعارفه في ذلك:

وقد نظم أدباء الصوفية ونثروا في هذه المعاني الشيء الكثير، وابن عربي لم يغفل هذه الناحية في شعره ونثره، فكتب عنها مدققاومقعدا وواضعا خطوات يسير عليها أبناؤه وتلاميذه وغيرهم ممن تجتذبهم الطريق ويستهويهم الهدى.

كما كتب عنها مستحثا ودافعا إلى مواصلة الجهاد في ذلك الطريق، وبذلك يكون قد أدى للتصوف العملي حقه من الأداء في اتجاهين:

الاتجاه الأول: الطريق الصوفي وما يحتاج إليه من آداب ومعاملات وما يلزم المريد فيها من ضرورات كاتخاذ الشيخ وتصحيح الإرادة وملاحظة الوقت والمداومة على الورد وغير ذلك مما يعد الحديث فيه من قواعد التصوف، والكتابة في ذلك أدخل في باب العلم الصوفي.

والاتجاه الثاني: هو الحث على سلوك الطريق والدعوة إلي التخلق بالأخلاق الفاضلة من زهد وتوبة وصدق وإيثار وغير ذلك مما يعد الحديث فيه صدى لعاطفة تجعله أدخل في باب الأدب الصوفي، وقد سبق الإشارة إلى ذلك.

وقد ترك الشيخ الأكبر في ذلك ذخيرة حية وكتبه التي طبع منها ومالم يطبع تعد ثروة للتصوف لا تنفد ذخائرها، فقد عبر فيها عن كل شيء يتصل بالتصوف، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأدلى فيها ببيان.

تناول الشيخ الأكبر المريد من بدء سلوكه إلى نهاية مرحلة في الطريق، وأوضح له في كل خطوة يخطوها ما يجب عليه وما يستحب له. ويمكن تلخيص ذلك عن كتبه العديدة التي حفلت بكل هذه المعاني والتي جاء بعضها خاصا بذلك، وجاء بعضها تتناثر في ثناياه تلك المعلومات والمعارف، ونذكر بعض آرائه هنا للبيان:

١- ضرورة اتخاذ الشيخ:

أول ما ينبغي للمريد عمله التوبة، ويجب له أن يبحث له عن شيخ فاضل متمكن توفرت فيه الشروط اللازمة لتربية المريدين، وقد أشار إلى ذلك بقوله: شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاج إليه في التربية[١١٦] ويقول: لابد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك وحينئذ يقال له أستاذ[١١٧].

---

(١١٦) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٥ ص ١٩٦.

(١١٧) رسالة الأمر المحكم المربوط ص ٤.

والشيخ ضروري في رأي «ابن عربي» فهو يقول: من لم يكن له أستاذ فإن الشيطان أستاذه[١١٨]. وهو ينظر في ذلك إلى ضرورة القدوة، والى أن العقل وحده لا يكفي في اكتساب المعرفة الحقيقية، وقد سبق الإشارة إلى ذلك والى اعتقاده بأن العلم الحقيقي لا يتم إلا عن طريق الذوق أو الكشف، وهذان لا يتمان إلا بواسطة التهذيب النفسي والخلقي على يد بصير عارف متمكن.

و«ابن عربي» في ذلك يبني رأيه على تجربة خاصة اكتسبها من شيوخه الذين صحبهم وقد وافق على هذا الرأي من سبقه ومن لحقه من أئمة التصوف.

فالكلاباذي صاحب التعرف على مذهب أهل التصوف ينشد لبعض الكبار:

من رامه بالعقل مسترشدا سرحه في حيرة يلهو
وشاب بالتلبيس أسراره يقول من حيرته هل هو؟[١١٩]

والشيخ حسن رضوان صاحب مطهرة النفوس ينظم ما ننثره هنا باختصار: «ليس في إمكان المريد الاهتداء إلى طريق الحق من غير

(١١٨) الأمر المحكم ص ٣.

(١١٩) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦٣.

اقتداء، فلابد له من دليل عارف يكون له حصنا من الوساوس وغيرها، فان اخذ الأدب من أصحابه ظهرت له الأسرار الباطنة في

ألفاظها فتنتفع به الأرواح وتصفو، أما الذي يقول: أن الشخص تغنيه كتبه عن الشيخ فهو واهم في قوله،«لأنه يمكنه أن يرى كشف الحجب ولا يمكنه صرف النفس عن هواها..» [120].

وشيوخ الصوفية جميعا يوجبون اتخاذ الشيخ – وان كان الدكتور على صافي حسين في كتابه الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري يرى أن بعض الشيوخ ومنهم الشاذلي لا يستوجبون على المريد اتخاذ شيخ له[121].

ولكن الواقع أن الشاذلية اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة وأوجبوا على المريد أن يكون له شيخ، وقد جاء هذا على لسان غير واحد منهم، ومن هؤلاء ابن عطاء الله السكندري الذي يقول في مفتاح الفلاح «وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ فاضل من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجده فليمتثل ما أمر ولينته عما نهى عنه وزجر» ومنهم ابن عجيبة الحسنى الذي يقول في غير

---

(١٢٠) روض القلوب المستطاب ص ٢٨٣.

(١٢١) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٤٤.

موضع من كتابه: إيقاظ الهمم على شرح الحكم: لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدا.

ويحكى الدكتور أبو الوفا التفتازاني حياة ابن عطاء الله السكندري – وهو لسان حال الشاذلية – قائلا: «ونخلص من كل ما سبق إلى أن ابن عطاء الله السكندري كان خاضعا في حياته الصوفية لما يخضع له السالكون من إشراف شيخ مرشد بصير عارف بالطريق إلى الله، ولما يصطنعونه من مجاهدة النفس ومحاربة يرى أن التقلب دليل على عدم الإخلاص في عبادة الله»[١٢٢].

وان كان هناك من فرق بين رأي «ابن عربي» ورأي «الشاذلي» فهو أن ابن عربي يلح في «تحريم تغيير الشيخ بل وزيارة غيره بدعوى أن يجد عند هذا الآخر أفضل وأيسر، إذ هو يرى أن التقلب دليل على عدم الإخلاص في عبادة الله»[١٢٣].

أما الشاذلي فقد كان متسامحا في هذه الناحية، وكثيرا ما كان ينصح بعض المريدين بالتوجه إلى غيره من الشيوخ إذا كان في ذلك نهوض لحالهم[١٢٤].

---

(١٢٢) ابن عطاء الله وتصوفه ص ٤٤.

(١٢٣) ابن عربي ص ١٢٨.

(١٢٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة "شاذلي.

ولا يتعارض رأي «ابن عربي» مع سلوكه الخاص فقد عرفنا أنه صاحب كثيرا من الشيوخ قدره بعض المترجمين لحياته بخمسة وخمسين شيخا، لأنه كان متمكنا من حاله لا يخشى عليه من ذلك التغيير، ولم يكن اصطحابه لهؤلاء الشيوخ إلا طلبا في الاستزادة من «البركة» التي يحملونها ورغبة في التعرف إلى أحوالهم وتواضعا لهم. أما المريد الذي يقدم له «ابن عربي» هذه النصيحة فهو عرضة للوساوس والأوهام، يخشى عليه من تقلبه وتردده بين الشيوخ انفراط العزيمة وانحلال العقد وضياع الإخلاص.

وضرورة اتخاذ الشيخ في رأي «ابن عربي» وغيره من الصوفية لا تتنافى مع استعمال العقل الذي اعتز به الإسلام، فالعقل ضروري في النواحي التي أوصى الله سبحانه وتعالى باستعماله فيها وذلك مثل التفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار للاستدلال من ذلك على قدرة الله تعالى وعظمته وإحاطته، وهذه درجة عظيمة من درجات العبادة، أما استعمال العقل في الوصول إلى ذات فمنهي عنه.

فإذا ما علم ضرورة اتخاذ الشيخ وجب على المريد أن يراعي مع هذا الشيخ آدابا معلومة حتى يمكنه الاستفادة الكاملة من مصاحبته، ومن هذه الآداب في رأي «ابن عربي» أن يكون بارا بأستاذة وألا يعترض عليه بقلبه أو بلسانه، وأن يكون بين يديه

«كالميت بين يدي الغاسل» وان يكون مطيعا لكل ما يصدر إليه من الشيخ من تعليمات وان يقتفي خطواته وان يحترمه في غيبته وحضوره وان يتحبب إليه دائما وان يؤثره على نفسه[١٢٥].

وليس في ذلك إلغاء لشخصية المريد ولكنه تثبيت لها، لأن الهدف من وراء ذلك تنقية النفس من كافة شهواتها وفي مقدمتها الرغبة في التسلط والغرور، ولن يقضى على ذلك إلا إذا قلمت إظفارها بالخضوع الكامل الذي يمحق الإرادة لمن يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة، فهو بذلك يميت نوازع النفس ليحيي معالم الروح، ويقضي على داء الأثرة ليقيم معاني الإيثار، وليس ذلك غريبا، فالتواضع رفعة والكبرياء ذل وقد امتدح الله قوما يحبهم ويحبونه بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وإذا كان الله قد أمرنا بخفض جناح الذل من الرحمة لوالد الجسد فمن الأولى أن يكون ذلك الخفض لوالد الروح ورسالته اشرف ومهمته أقدس.

وأدب الصوفية مع شيوخهم مستمد من أدب الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول الله في حقه: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما»[١٢٦]، ويقول في حقه: «النبي

---

(١٢٥) الأمر المحكم ص ٥- مواقع النجوم ص ١٠٢.

(١٢٦) النساء ٦٥.

أولى بالمؤمنين من أنفسهم»[١٢٧] وشيوخ الصوفية يسيرون على قدم رسولهم الكريم. ويؤدون واجبهم نحو رسالته السامية، فلابد أن يتحلى تلاميذهم بالأدب الذي كان يتحلى به الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- الخلوة:

ويأمر الشيخ مريده بالخلوة إذا رأى في ذلك ما يصلحه، وعلى المريد حينذاك ألا يبارحها إلا بإذن شيخه في الحدود التي توضحها أصول الطريق، وهي أن يكون خروجه لأداء جماعة أو قضاء حاجة أو سعى في ضرورات الرزق. فإذا ما خرج فعليه أن يكون غاض البصر معلق القلب بالله ذاكرا له بلسانه مغلقا سمعه عن كل ما يؤذيه في باطنه أو يقطع عليه تأمله وذكره وحضور قلبه وهمته.

وفي الخلوة يمارس ألوانا من الذكر والتسابيح وتلاوة القرآن، وصيغ الصلاة على النبي صلي الله عليه وسلم وقد يطالع بعض الكتب الصوفية والشرعية التي تعينه على وقته.

وتثمر الخلوة في رأي الشيخ الأكبر وغيره من الصوفية ثمارا عظيما متى روعي فيها أدبها المطلوب وهو لا يخرج عما أشير إليه، يضاف إليه الإقلال من الطعام وطول السهر وكثرة التأمل.

---

(١٢٧) الأحزاب ٦.

وهذه الثمار اليانعة للخلوة تظهر في العفة والطهارة وذلك بسبب البعد عن المغريات، وفي الزهد لأنه أصبح حالا للقلب بما انطبع فيه من كراهيته للدنيا وتعال على مباذلها، وفي التجريد الذي يعد قمة أحوال الصوفية وذلك بما يصحب المريد من تفويض كامل وتوكل حقيقي، ويصل به إلى مقام البتول مريم التي «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال: يا مريم، أني لك هذا؟ قالت هو من عند الله، أن الله يرزق من يشاء بغير حساب».

كما أن من ثمارها التواضع الذي ينشأ عن شهود الافتقار الكامل إلى الله ومشاهدة عظمته وقدرته وهيبته، وكلما اشتدت هيبة المريد لله ازداد انمحاقه والشعور بضعفه وذله، ومن كلام ذي النون المصري «من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله – فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته» وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى: يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد[١٢٨].

ومن ثمار الخلوة الصفاء كما هو ثمرة للتواضع أيضا، ويفهم ذلك من قول ذي النون السابق. والصفاء هو المقدمة الكبرى لما يأتي بعد ذلك من نتائج قيمة في الطريق الصوفي، والصفاء ينتج عن

---

[١٢٨] فاطر ١٥.

إجلاء مرآة القلب بذهاب ما تراكم عليها من ظلمة وكثافة وبانجلائها تصبح قابلة لمختلف الادراكات الذوقية والكشفية.

وينتج عن الخلوة مدى استعداد المريد لبلوغ المقامات والأحوال المختلفة كالتوكل وما يترتب عليه من تسليم وتفويض، والمحبة وما تستتبعه من شوق ووجد وأنس وقرب، والمعرفة وما تحققه من فناء وبقاء.

٣- استخدام الوقت:

ويعتني «ابن عربي» شأنه شأن غيره من الصوفية بتدبير الوقت وحسن استخدامه والمتتبع لكلامه في كتبه وبخاصة الأنوار ومواقع النجوم يرى كيف يلح على ضرورة استفادة المريد من وقته الذي هو كالسيف أن لم يقطعه المريد بالعمل قطعه الوقت بالمقت.

والوقت لابد أن يكون مقسما بين فعل الخير والعبادة، ويدخل في نطاق فعل الخير السعي في اكتساب الرزق الحلال وفي الإحسان والتصدق وإعانة الغير وعيادة المريض وتشييع الجنائز والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من أفعال الخير التي لها صلة وثيقة بترقية المجتمع، ويدخل في نطاق العبادة كل ما يعود على النفس من تخليه وتصفية وتحليه. فالنخلية بالتوبة، والتصفية بالرياضة والتحلية بالذكر والتسبيح والتلاوة وما شابه ذلك.

على أن ذلك كله لا يمكن أن يؤتي ثماره المطلوبة ما لم يكن تحت إرشاد شيخ، ويتصل بذلك في حسن استخدام الوقت محاسبة النفس ومراقبتها، حتى يقطع الطريق على وساوسها وخطراتها، والمحاسبة لها أثر كبير في تهذيب النفس وترقية الوجدان وتحسين السلوك، وعليها يتوقف نجاح المريد في الوصول.

ويرى «ابن عربي» أن يقسم المريد ليله ونهاره تقسيما دقيقا ويختص كل ساعة بأعمال صالحة معينة، وقد فصل ذلك في كتابه «كنه ما لابد للمريد منه» ووضع تخطيطا إجماليا لتوزيع الساعات بما يشغل أوقات الفراغ من تلاوة ومحاسبة وفكر[١٢٩].

وتدبير الوقت له أثر كبير في تنظيم الحياة لدى الصوفية، ولذلك نراهم لا يشكون من أوقات الفراغ كما يشكو غيرهم، ولكنا نراهم كثيرا ما يشكون من ضيق الوقت الذي لا يسعفهم بأداء حقوق الله الواجبة الأداء وشاعرهم يقول في ذلك:-

وزادي قليل ما أراه مبلغي   اللزاد أبكى أم لطول مسافتي

وبمنهج المحاسبة اطمأنوا في حياتهم، وفرغوا من القلق النفسي الذي نفض حياة كثير من الأفراد، لأنهم أقاموا من ضمائرهم سلطانا

---

(١٢٩) ابن عربي ص ١٥٦.

حيا، يراقب تصرفاتهم وسلوكهم، ولذلك ارتفعوا بنفوسهم عن الأنانية وحب الذات، كما بعدوا عن مسالك النفاق ومدارج الظهور.

٤ - الأخوة:

اعتني «ابن عربي» بالأخوة في الله وحياته الطويلة الحافلة قضاها في صحبة أخوان صادقين كان يعتز بأخوتهم ويتغنى بصداقتهم ويسعى في حاجاتهم ويؤثرهم على نفسه، وكان يتحدث كثيرا عن الأخوة التي تربطه بغيره ممن اتفق مشربه واتحد هدفه معه. وهو يذكر شيوخه وإخوانه فيقول عنهم «وما من واحد إلا وعاشرته معاشرة مودة وامتزاج ومحبة منهم فينا».

و«ابن عربي» يكره التكلف بين الإخوان، بل يحب أن يتعاملوا فيما بينهم بالانبساط وعدم التكلف، وله كتاب أشار إليه في مجلس جماعة من أصدقائه الذين كانوا يحتشمونه اسمه: «الإرشاد في خرق الأدب المعتاد» وكان يهدف من الإشارة إليه أن ينبسطوا معه في مجلسه ويكفوا عن التكلف والسكون. وهذه الناحية السلوكية تدل على مدى عنايته بالإخاء في الطريق الصوفي، ولذلك نجده ينص عليه كثيرا في رسائله ومصنفاته، ويرى أن الأخوة تعين على السفر وتبدد الوهن في العزم وقوي الهمة وتبعد الملل.

ويرى «ابن عربي» أن المريد ينبغي أن يكون إيثاره غير قاصر على أخوانه، بل يجب أن يشمل أفراد المسلمين، فهذا من صفات الصديقين فعليه أن يبذل ماله بسخاء وان يخدم الفقير وان يعين المحتاج وان «يعين الحمال على رفع حمله وان يعني بالمريض، وان يهدي الضال، وينبغي عليه أن يفضل الفقير على الغني دائما، وفي ذلك لون من ألوان الشجاعة الأدبية، ومظهر يدل على قوة الشخصية التي تنأى عن مواطن الرياء والمداهنة.. وعلى الصوفي أن يسير في الطرقات مزيلا ما يعترضها من عقبات تقف دون سير الغير من أحجار وأشواك»[١٣٠].

هذه السعة الخلقية التي يراها «ابن عربي» لازمة للمريد وضرورة من ضرورات سلوكه في مجتمعه غير مفرق بين أفراد هذا المجتمع، هي التي تحتم على المريد أن يكون سلوكه من باب أولى مع أخوانه غاية في الإيثار والتعاون والصفح والمودة والرعاية.

٥- ما يعين على بلوغ الغاية:

ولم يترك «ابن عربي» التنويه على الأسباب التي من شأنها تبلغ بالمريد إلى أعلى درجات الرقي والكمال وهي كثيرة سبق الإشارة إلى بعضها ومن بين هذه الأسباب:

---

(١٣٠) ابن عربي ص ١٥٣.

(أ) المحاسبة: وهي تعد ركنا أساسيا في الطريق الصوفي، وعمادها الشرعي قوله عليه الصلاة والسلام" حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا".

وأثرها النفسي قوى لأنها تترك المرء يصلح نفسه أولا بأول، وقد اعتنى الصوفية قديما وحديثا بهذا الأساس، «وابن عربي» له في ذلك تجربة عملية فقد صاحب بعض الشيوخ الذين كانوا يحاسبون أنفسهم على ما يقولون ويفعلون، فزاد هو عليهم محاسبة نفسه على خواطره، وتلك مرتبة عليا وجديرة بأن تبلغ بصاحبها إلى الكمال الخلقي والروحي.

(ب) الدعاء: ويعتني «ابن عربي» بالدعاء على أنه أحد الأسباب التي يبلغ بها المريد غاية الطريق، والدعاء يتنوع بين صلاة وذكر وتأمل وتلاوة.

١- **الصلاة**: وهي في اللغة الدعاء، وتجمع بين الابتهال والتسبيح والمناجاة والتلاوة والصلاة على النبي في أدائها، وهي إذ أديت على شريطتها المطلوبة حققت معنى الخشوع والخضوع والانقياد الكامل وحصول الأنس واستحضار الهيبة وأصبحت الصلة الحقيقية بين العبد وربه، وتتنوع الصلاة بين الفرض والنفل، وهي كلما ازداد المريد إقامة لها ازداد إقبالا على الله وقربا منه ومحبة له.

٢-الذكر: وله أثر نفسي رائع، فبذكر الله تطمئن القلوب وله أثر روحي يظهر من قوله تعالى: أذكروني أذكركم، ومن الأثر القدسي: إذا ذكرني عبدي في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه.

والذكر يورث الصفاء ويعمر القلب لأنه يقوم بمهمة التصفية والتحلية اللتين تعقبان التخلية، والتخلية (أي تخليه القلب من آثاره المذمومة) تكون بالاستغفار والتوبة والندم، فإذا ما طهر القلب وجب شغله وتعميره، ويتم ذلك بواسطة الرياضة والذكر، والذكر يورث أنوارا تتمكن في القلب وتكشف أمامه الحجب.

٣-التأمل: وهو ضروري للمريد لأنه عبادة الصديقين، والتأمل في رأي «ابن عربي» لا يكون في ذات الله، استنادا إلى الأثر الوارد: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله، والأثر الوارد: البحث عن الذات إشراك والعجز عن الإدراك إدراك، ويورد ابن عربي في ذلك شعرا:-

قل لامرئ رام إدراكا لخالقه ... العجز عن درك الإدراك إدراك

من دان بالحيرة الغراء فهو فتى ... لغاية العلم بالرحمن دراك

وأي شخص أبى الا تحققه ... فإن غايته جحد وإشراك

فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحى ... جرت بها فوق جو النسك أفلاك

فالتأمل في رأي «ابن عربي» يجب أن يكون للعظة والاعتبار ولإدراك قدرة الله وسعة حيطته وعلمه وانه فعال لما يريد، وذلك مطلوب شرعا لقوله تعالى: «أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب – الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك فقنا عذاب النار»[131].

أما التفكر في ذات الله فمنهي عنه في رأي «ابن عربي» بمقتضى الفهم من قوله تعالى «ويحذركم الله نفسه»[132]. أي لا تتفكروا فيها.

وهذه حقيقة اتفق الصوفية وغيرهم عليها، «فالحارث المحاسبي يقول: أكمل العاقلين من اقر بالعجز انه لا يبلغ كنه معرفته. وهذه حقيقة لا مراء فيها وهي العجز عن إدراك ذات الخالق، ومن حاول أن يدرك فعجز دون الغاية واقر بعجزه فهو غاية الإدراك، والعجز كله لكل المخلوقات حتى الملائكة التي تحف بالعرش، وهي الرقائق النورانية، وقد التقى في ذلك صوفية المسلمين وفلاسفتهم»[133].

---

(١٣١) آل عمران ١٩٠، ١٩١.

(١٣٢) آل عمران ٢٨.

(١٣٣) عبد العزيز الأهل–منبر الإسلام رجب ١٣٨٦هـ.

وفي الحقيقة أن الاعتراف بالجهل في هذه الناحية هو عين المعرفة، لأنه دليل تام على عظمة الله وإحاطته وقدرته الخارقة التي لا يحيط بها علم ولا يدركها عقل. نقل صاحب الذرات عن ابن عربي قوله: «أجمعت الطائفة على أن العلم بالله عين الجهل به تعالى»[١٣٤].

وقد عبر عن هذا المعنى أحد صوفية العصر الحديث هو شيخنا السيد محمد علي منصور الأقدمي قائلًا فيما كان يردده أَحيانًا:-

عجزت – نعم – عن درك سر وجودي وجهلت حتى صار جهلي شهودي

وإجلاء الصحابة الذين كانوا نبراس هدى لنا ورد عنهم ذلك الإقرار بالعجز الذي هو عين الإدراك، فقد سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه: بم عرفت ربك؟ قال عرفت ربي بربي، قيل: وكيف عرفته؟ قال: العجز عن الإدراك إدراك.

٥- **التلاوة**: وقد أدرك ابن عربي سرها منذ كان مصاحبا لوالده ورآه مواظبا على تلاوة القرآن الكريم وأدرك منه سر الأثر المشهور «يس لما قرئت له» فقد تلاها عند رأسه وهو مريض في غيبوبة الحمى، فرأى أجساما نورانية لطيفة تحيط به وتدفع عنه أذى المرض، ويروي عنه صاحب كتاب ابن عربي هذه

---

(١٣٤) الشذرات جـ ٥ ص ١٩٦.

القصة التي وردت في الفتوحات «مرضت فغشي علي في مرضى بحيث أني كنت معدودا في الموتى، فرأيت قوما كريهي المنظر يريدون أذايتي، ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عني حتى قهرهم، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا سورة يس ادفع عنك، فأفقت من غشيتي تلك، وإذا بأبي رحمه الله عند رأسي يبكى وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها فأخبرته بما شهدته».

وأدرك سر سورة الفاتحة وهي أم الكتاب من فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي فقد كانت تتلوها فيتيسر أمامها كل مطلوب، ويروي «ابن عربي» عنها قولها: إني والله لمتعجبة، لقد أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب تخدمني فو الله ما شغلتني عنه».

ويعلمنا «ابن عربي» كيف كانت تقرأ هذه المرأة الفاتحة

فيقول:– «أنشأت تقرأ فاتحة الكتاب وقرأت معها، فعلمت مقامها عند قراءة الفاتحة، وذلك أنها تنشئها بقراءتها صورة مجسدة هوائية».

ومن الشيوخ الذين صاحبهم ابن عربي يواظبون على تلاوة القرآن «محمد بن قسوم الأشبيلي» الذي يقول عنه «إنه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة في حضرة التوحيد وتارة في الجنة وتارة في

الاعتبار وتارة في الأحكام بحسب مل تعطيه الآية حتى يصبح فيخرج من صلاته وقد اطلع على علوم كثيرة في تلاوته من الله تعالى، لم تكن عنده فهمه الله تعالى إياها من القرآن».

وتلاوة القرآن لها حقا ذلك السر العجيب، وصاحبها من الذين لهم تجارة رابحة «أن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور»[١٣٥].

وآداب التلاوة عند «ابن عربي» يوضحها بقوله:- «إذا وفقك الله وتريد أن يسمع الحق جل اسمه منك تلاوتك ويرسمك في ديوان التالين، فاعلم منازل التلاوة ومواطنها، وذلك أن تعلم أن على اللسان تلاوة وعلى الجسم بجميع أعضائه تلاوة وعلى النفس تلاوة وعلى القلب تلاوة وعلى الروح تلاوة. فتلاوة اللسان ترتيل الكتاب على الحد الذي رتب المكلف له، وتلاوة الجسم المعاملات على تفاصيلها في الأعضاء وتلاوة النفس التخلق بالأسماء والصفات، وتلاوة القلب الإخلاص والفكر والتدبر وتلاوة الروح التوحيد»[١٣٦].

٦- المقامات والأحوال:

الحال يطلق لغة على الوقت الذي أنت فيه وما عليه الشخص من خير أو شر ويطلق اصطلاحا لدى الصوفية على المعنى الذي يرد

---

(١٣٥) سورة فاطر ٢٩.

(١٣٦) مواقع النجوم ص ٨٢.

على القلب بلا تصنع ولا اكتساب، والمقام يطلق اصطلاحا على «ما يتحقق به العبد من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف»[١٣٧].

والمقامات هي مراحل الطريق إلى الله وفيها تظهر حقائق السالكين والمريدين كل على حسب مقدرته وعزيمته وقوة صبره في الجهاد. وعلى هذا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب.

ويختلف الصوفية في تحديد المقامات والأحوال على حسب أذواقهم ومشاربهم، فالغزالي رضي الله عنه يرى أن المقامات هي التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة[١٣٨].

وابن عطاء الله السكندري يرى أنها هي التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة[١٣٩].

والطوسي – رضي الله عنه – يرى أنها التوبة والورع والزهد والفقر والتوكل والرضا[١٤٠].

---

(١٣٧) الرسالة القشيرية.

(١٣٨) الأحياء الجزء الرابع.

(١٣٩) التصوف في الشعر العربي.

(١٤٠) ابن عربي حياته ومذهبه ص ١٩١.

أمـا ابـن عربـي فيـذكر «أسـين بلانيـوس» فـي كتابـة أن أهـم المقامات التي يذكرها في «الفتوحات» هي التوكل والشكر والصبر والرضـا والعبوديـة والاسـتقامة والإخـلاص والصـدق والحيـاء والغيـرة والولايـة والرسـالة والنبـوة والمحبـة، وفـي كتابـه «تحفـة السـفرة» و «مواقـع النجـوم» يـذكر بعـض المقامـات الرئيسـية مثـل: الاسـتواء والتسليم والأنس والخوف والرجاء واتحاد الإرادة مع إرادة الله[١٤١].

ومن هذا ندرك أن ابن عربي بينه وبين غيره من الصوفية موافقة على بعض المقامات كما انه انفرد عن غيره بذكر بعض المقامات كما انفرد غيره كذلك.

واختلافهم راجع إلى تعدد الذواق وهي قواعد غير ثابتة ولكنها اجتهادية تدرك من واقع ما يكشف لهم من علوم ومعان، فما يكشف لهذا قد لا يكشف لذاك وما يدركه رجل قد لا يدركه رجل آخر.

٧- أسرار العبادات:

وابـن عربـي فـي دعوتـه إلـى التمسـك بأسـباب النجـاة ووسـائل الكمال وفي مقدمة ذلك المواظبة على العبادات المختلفة لا يغفل عـن أسـرار هـذه العبـادات ومـا تهـدف إليـه مـن غايـات وتربيـه للـروح وإيقاظ للمشاعر.وهو في ذلك ينبه على أهمية الشرع وضرورة إتباعه

(١٤١) ابن عربي حياته ومذهبه ص ١٩١.

وعدم الغفلة عنه لما يحتوي عليه من دقائق يفطن إليها اليقظ ويغفل عنها الكسول.

والشرع في رأي «ابن عربي» ليس قشرا والحقيقة لبا كما يرى البعض، ولكن الشرع في رأيه شجرة فارعة ثمارها الحقيقة والمعرفة، وكلما أمعن المريد في ممارسة الشرع ظهرت له حقائق وتكشفت أمامه أسرار لا يمكن أن يدركها من غير طريقها الأساسي وهو إقامة الشريعة على أصولها.

ولذلك نسمعه ينبه مرارا على أن العلم الحقيقي لا يمكن إدراكه بغير الشرع وتطبيق محكم الكتاب والسنة – وقد مر بنا بعض النصوص الواردة في ذلك – ونضيف إليها قوله:- «لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكما واحدا من شرائع الأنبياء

فمن ادعى المعرفة واستشكل حكما واحدا في الشريعة المحمدية أو غيرها فهو كاذب»[١٤٢].

ويقول الشعراني تعليقا على ما فهمه من قول «ابن عربي» في كتابه الفتوحات حول هذا المعنى «يجب على الوالي متابعة العمل

(١٤٢) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٦.

بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله تعالى له في قلبه عين الفهم عنه فيلهمه معاني القرآن ويكون من المحدثين»[١٤٣].

ومما يدل على تعمقه إلى باطن الأشياء قوله في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات: «أن معنى «عبرة» في قوله تعالى «أن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار» من العبور لا من الاعتبار. ومعنى ذلك لا تقفوا على ظاهر الأمر بل اعبروا من مظاهر تلك الصورة إلى باطنها»[١٤٤].

ولكي ندرك مدى عناية ابن عربي بالتنبيه على أسرار العبادات نستمع إليه وهو ينصح المريد وهو يتأهب للصلاة بقوله:- «فإذا توضأت فاسع في الخروج من الخلاف وتوضأ أسبغ وضوء، وسم الله في بدء كل حركة، واغسل يديك بترك الدنيا منهما، ومضمض بالذكر والتلاوة، واستنشق بشم الروائح الإلهية، واستبر بالخضوع وترك الكبر، واغسل وجهك بالحياء، وذراعيك بالتوكل، وامسح رأسك بالمذلة والافتقار والاعتراف، وامسح أذنيك باستماع القول واتباع أحسنه، واغسل قدميك لايطاء كثيب المشاهدة، ثم اثن على الله بما هو أهله، وصل على رسوله الذي أوضح لك سنن الهدى صلى الله عليه وسلم، وقف في مصلاك بين يدي ربك من غير تحديد ولا

---

(١٤٣) الكبريت الأحمر ص ٢٢.

(١٤٤) المرجع السابق ص ١٦.

تشبيه، وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك وتحقق أن ما في الوجود أحد إلا هو وأنت فتخلص ضرورة، وكبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك وإذا تلوث فكن على حسب الآية المتلوة فان كان ثناء عليه فكن أنت المحدث وهو الذي يتلو كتابه عليك فيعلمك الثناء عليه فيما يثنى به على نفسه، وكذلك في آية الأمر والنهي وغير ذلك لتقف عند حدوده وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها في قلبك لأدائها والمحافظة عليها، والحظ ناصيتك بيده في ركوعك ورفعك وسجودك وجميع حركاتك فتسقط لك الدعوى في هذه الملاحظة حتى تسلم، فإذا سلمت فابق على عقدك أنه ما ثم أحد غيرك وربك سبحانه، وسلم باللفظ على من أمرك فإن سلامك على نفسك»(١٤٥). فهو في هذا النص المنقول من التدبيرات الإلهية يدرك السر من التعبد وينبه على ملاحظته عند ممارسة العبادة.

يقول في الباب الثامن والستين من الفتوحات: اشترطت النية في التيمم ولم تشترط في الوضوء لأن الماء سر الحياة فهو يعطي الحياة بذاته سواء قصد أو لم يقصد بخلاف التراب لأنه كثيف لا

---

(١٤٥) ابن عربي ص ١٦٦.

يجري على العضو ولا يسري في وجه القصد فافتقر إلى القصد الخاص بخلاف الماء[146].

وهذا إدراك خاص لسر من أسرار الطهارة بالماء والتيمم. وله في معنى الاستنشاق فهم رائع يوضحه في هذا الباب، «فالاستنشاق بالماء في الأنف لأن الأنف محل العزة والكبرياء والماء طهارة، فكان في ذلك إشارة إلى نثر الكبرياء والتبرى منه بالانقياد والخضوع لله[147].

ويفهم من الصلاة سر اشتقاقها من «المصلى» وهو الذي يلي السابق في الحلبة، والسابق هنا هو التوحيد، والمصلى هي الصلاة، ويشهد لذلك حديث: بني الإسلام على خمس.

«وابن عربي» يفهم من معنى استلام الحجر الأسود في أداء فريضة الحج معنى ساميا يقضي بالمبايعة لله، وهو ينظر إلى الأثر الوارد: الحجر يمين الله في الأرض. وينشد:-

من يطع الإرسال صدقا فقد   أطاع من أرسلهم والسلام
كمثل من بايع معبودة   وإنما بايعه في الأمام
وقد أتى أوضح من ذا وذا   في الحجر الأسود بالاستلام

(١٤٦) الكبريت الأحمر ص ٣٠.

(١٤٧) محاضرة الأبرار جـ ١ ص ١٦٣.

فقـل لمـن يفهـم مـا قلتـه بعـد الـذي سـمعته: لا كـلام

كما يدعو في أبيات أخرى إلى تقبيل الحجر الأسود مشيرا إلى مداومة الاتباع ورعى المودة وحفظ الذمام ومنبها على رتبة المعرفة.

يمـين المـؤمن الـركن اليمـاني أبايعـه لأحظـى بالأمـاني

يمـين مالهـا حجـب تعالـت عن الحجاب والحجب المباني

أمنـت بلثمهـا مـن كـل سـوء يصـيرني إلـى دار الهـوان[١٤٨]

وهـذه الأسـرار التـي توصـل إليهـا الصـوفية مـن العبـادات هـي المفهـوم الزائـد لهـم، وهـي الخاصـية الدقيقـة التـي أطلـق علـيهم مـن أجلها: علماء الحقيقة، ولقد فهـم الصوفية ذلك لأنهـم تناولوا معنى العبادات بأرواحهم وأقاموا بأركانها وشعائرها الحقيقية المطلوبة وكان الإخلاص رائدهم في أقامتها، وذلك هو المطلوب فعلا لقوله تعالى «فاعبـد الله مخلصـا لـه الـدين» ولقولـه «ومـا أمـروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» والإخلاص هو روح العبادة، وهو سر من أسرار الله يضعه في قلب من يشاء من عباده. وبالإخلاص استنارت قلوبهم فأدركوا من المعاني ما لم يدركه غيرهم.

(١٤٨) محاضرة الأبرار جـ ١ ص ١٦٣.

تعبيرات في التصوف النظري:

وفي التصوف النظري الذي يعد ثمرة الجهاد المتواصل في الطريق الصوفي، كما يعد صدى للانفعالات العنيفة التي تتردد في نفس الصوفي وتمتلئ بها روحه، ويعد تعبيرا عن المعارف التي يتذوقها أو يكاشف بها ترك «ابن عربي» في ذلك ثروة ضخمة كان لها أثرها بين الصوفية والفقهاء. وسنعرض لموضوعين من ذلك.

١- الحب:

ويقصد به هنا حب الله جل وعلا، وهو عند «ابن عربي» حب يسمو على كل شيء ويرتفع بالإنسان إلى درجة من القداسة تصل به إلى أعلى المراتب، لأنه لابد أن يكون ثمرة لما مر به من جهاد متواصل، وتحقق به من أرفع آيات الأخلاق والفضائل.

وحب الله تضاربت فيه الأقوال بين الفقهاء والصوفية، فالفقهاء ينكرونه على أساس أن حب الله لابد أن يتمثل في طاعته والاقتداء بنبيه مصداقا لقوله تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» ولا يجوز أن يقع الحب إلا بين متماثلين، ولا مماثلة بين العبد والرب[١٤٩].

---

(١٤٩) الأدب الصوفي في مصر ص ٩٥.

ولكن الصوفية يجيزونه على أساس أن القرآن الكريم قد صرح به في قوله تعالى «والذين آمنوا أشد حبا لله» وقوله «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» وفي الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وليس هنا مظهر لهذا الحب أبلغ من التدله بذكره والتفاني في عبادته والتعظيم لاسمه والهيام بجماله، والتعبير عن ذلك بما يشبه الغزل الحسي صونا لهذه العاطفة النبيلة المستكنة في القلب والشعور.

قال الدكتور زكي مبارك «تكلم الصوفية جميعا في الحب لأن هذه الحال هي الفيصل بينهم وبين أهل الشريعة الذين يعبدون الله طمعا في الثواب وخوفا من العقاب، ولا يستقيم حال المتصوف إلا إذا فرغ من دنياه وأخراه فلا يكن له مأرب إلا لقاء الحبيب»[١٥٠].

وحب الله غاية نبيلة لدى الصوفي – ولدي ابن عربي بصفة خاصة – وهو طريق للمعرفة الكاملة عنده، فهو يرى أن المحبة أشواق واحتراق، أما المعرفة تمكين وثبات ويعبر عن ذلك بقوله: المحب إذا سكت هلك، والعارف أن لم يسكت هلك[١٥١].

---

(١٥٠) بين التصوف والأدب ص ٨١.

(١٥١) رابعة العدوية ص ١٣٥.

ولأن المحبة طريق المعرفة يفسر هذا البيت الوارد في ترجمان الأشواق:-

عهدي بمثلك عند بأنك قاطفا ثمر الخدود وورد روض أينع

بقوله:- «كم شهدت من محب مشتاق بروضك بقطف من ثمار معارف القيومية، يعني التخلق بها، وقد اختلف أصحابنا في التخلق بصفة القيومية ومذهبي التخلق بها، وفيما تحمله الوجنات من الحمرة المستفادة من (ورد روض أينع) إشارة إلى مقام الحياء الذي نتج عن المراقبة والمشاهدة»(١٥٢).

وقد تقلب «ابن عربي» في مقام الحب. واصطلى بناره وله في ذلك آثار رائعة سبق الإشارة إلى بعضها – ولا يفي المقام بالإفاضة فيها – وخلص من مقام الحب إلى مقام آخر قصرت عنه عزائم الكثيرين وهو مقام المعرفة الذي ظفر فيه عن جدارة بلقب «سلطان العارفين» ومن أهم هذه الآثار: ترجمان الأشواق، الذي يقول في مقدمة شرحه:-

ليت شعري هل دروا أي قلب ملكوا؟
وفؤادي لو درى أي شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا؟

(١٥٢) ذخائر الأعلاق ص ١٠٤ بتصرف.

حـــــار أربـــــاب الهــــوى فـــــي الهــــوى وارتبكــــوا

وهـذا تصـوير لحيـرة العاشـق. والحـب عنـد «ابـن عربـي» لـيس كلاما يقال، أو أشعارا تروي، ولكنه أخلاق ومدارج ومعارج تسفك في الصعود إليها الدماء وتطل الأرواح.ولا يكمل مقام المحب حتى يضفي عليه الحب ثوبا قشيبا من الخير والتسامح ونكران الذات، وحتى يؤمن بنظرية الشمول الواسعة في الرحمة والمحبة، فالخلق جميعا مظهر قدرة المحبوب الأعلى، وهم على اختلاف مذاهبهم لا يخرجون عن دائرة أزادته ومشيئته فلماذا يكن لهم بغضا أو يحمل لهم ضغنا؟

وابن عربي صاحب القصيدة المشهورة التي يقول في آخرها:

أدين بدين الحب أني توجهت ركائبـه فالحـب دينـي وإيمـاني

وهو حريص على الرمزية في حبة شأنه في ذلك شأن غيره من الصوفية حرصا على المعاني والأسرار وصونا للقداسة والروحانيات التي أدركها، ومن ذلك قوله في ترجمان الأشواق:

سلام على سلمى ومن حل بالحمى وحـــل لمثلـــي رقـــة أن يســـلما

ومـــاذا عليهـــا أن تـــرد تحيـــة علينا، ولكن لا احتكام على الدمي

ســروا وظــلام الليــل أرخــى ســدوله فقلــت لهــا: صــبا غريبــا متيمــا

فأبـــدت ثناياهـــا وأومـــض بـــارق فلـم أدر مـن شـق الحنـادس منهمـا

وقالــت: أمــا يكفيــه أنــي بقلبــه يشاهدني من كل وقت، أما وما؟

والحب عذاب، ويحلو التذلل في سبيله، ويعبر ابن الفارض عن ذلك المعنى بقوله:

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل فما اختاره مضني به وله عقل

وعش سالمًا فالحب راحته عنا وأولــه ســقم وآخــره قتــل

أما ابن عربي فيقول:

إذا حــل ذكــركم خــاطري فرشت خدودي مكان التراب

وأقعــدني الــذل فــي بــابكم قعود الأسارى لضرب الرقاب

ومن أجل هذا الحب الخطر الذي لا يهدأ قلب صاحبه، ولا ينال في طريقه راحة، لأنه حب محفوف بالمخاطر، تعرض «ابن عربي» وغيره من الصوفية للسلق بألسنة حداد، إلى جانب ما كانوا يكابدونه في نفوسهم من عذاب الوجد ومشقة الصد، وبعد الشقة وطول المسافة، وهم لذلك أصبحوا بين نارين: نار الحب ونار العذل. أليس ذلك مما يبعث الرثاء والعطف عليهم والرحمة بهم؟

٢- الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية:

أول من تحدث في هذا الأمر الحلاج المتوفي سنة ٣٠٩ هـ، فهو يقول: «أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت،

وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم وجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم»[153].

وجاء ابن عربي بعد ذلك فجلى هذه الفكرة وأوضحها في مواضع متفرقة من كتبه، وبين أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل، وفتح الطريق لمن جاءوا بعده من الصوفية إلى التعبير عنها تعبيرا يختلف من واحد إلى آخر على قدر مفهومه وذوقه وإدراكه.

و«ابن عربي» ينظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم على أنه بشر، ولكنه لم يكن كغيره من البشر، فهو انسان كامل منذ مولده ونشأته، وهو يتقلب من كمال إلى كمال، ولذلك أعطاه الله جوامع الكلم واختصه بها، كما أعطاه معاني الأسماء وحقائقها، أما آدم فقد علمه الأسماء فقط.

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم انسانا كاملا فهو قد جمع الكمال من أقطاره، في كل قول وفعل وفي كل ما يأتي ويدع، هو القدوة الكاملة والأسوة الحسنة وهو أكمل نبي وأفضل مبعوث. وقد اختصه الله بمقام الفردية. ولذلك أطلق عليه ابن عربي في كتاب

(١٥٣) التصوف في الشعر العربي ص ٣٤٦.

فصوص الحكم هذا المنطوق «فص حكمة فردية في كلمة محمدية».

ويعبر عن حقيقة محمد الكاملة الذي يطلق عليه «الإنسان الكامل» في كتابه شجرة الكون بقوله: «إن الله كون الأكوان اقتدارا عليها لا افتقار إليها، وكمال حكمته في التكوين وذلك لإظهار شرف الماء والطين، فانه اوجد ما اوجد ولم يقل في شيء من ذلك، إني جاعل في الأرض خليفة، وكان وجود الآدمي، فكانت حكمته في وجود الآدمي لإظهار شرف النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه حكمة الأجساد ولاستخراج كاف الكنزية: كنت كنزا مخفيا لا أعرف.

فكان المقصود في الوجود معرفة موجدهم سبحانه، وكان المخصوص بأتم المعارف قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأن معارف الكل كانت تصديقا وإيمانا، ومعرفته صلى الله عليه وسلم مشاهدة وعيانا وبنور معرفته تعرفوا، وبفضله عليهم اعترفوا، فاستخرجه من لباب حبة «كن» كزرع أخرج شطأه فأزره بصحابته، فاستغلظ بقرابته فاستوي على سوقه بصحة ذوقه وقوة توقه وشوقه»[١٥٤].

---

(١٥٤) شجرة الكون ص ٧.

و«ابن عربي» يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم أكمل موجود في هذا النوع الإنساني، ولذلك بدء به الأمر وختم، وكان نبيا وآدم بين الماء والطين، وليس أدل على ذلك من انه حين سئل صلى الله عليه وسلم: متى كنت نبيا يا رسول الله؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، كما روى عنه: كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث(١٥٥).

أما كيف كان أولهم خلقا فقد أشار إلى ذلك «ابن عربي» بقوله: «لما قبض الله آدم من قبضة تراب «كن» مسير على ظهره حتى يميز الخبيث من الطيب، فاستخرج من ظهره من كان من أصحاب اليمين ومن كان من أصحاب الشمال، ثم اعتصر من شجرة «كن» صفوة عنصرها، ومخضها حتى بدت زبدتها، ثم صفاها وألقى عليها من نور هدايته، حتى ظهر جوهرها ثم غمسها في بحر الرحمة، ثم خلق منها نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم زين بنور الملأ الأعلى حتى أضاء وعلا، ثم جعل ذلك النور أصلا لكل نور، فهو أولهم في المسطور، وآخرهم في الظهور»(١٥٦).

ورسم «ابن عربي» الطريق لما جاء بعده ليعبر عن هذه الحقيقة ومن هؤلاء «الجيلي» الذي ألف كتابا اسماه «الإنسان الكامل» في

---

(١٥٥) محمد الإنسان الكامل-مقال للدكتور محمد مصطفى حلمي-منبر الإسلام

(١٥٦) شجرة الكون ص ٦.

معرفة الأواخر والأوائل. وفيه يقول: ثم أنهم (أي الأنبياء) متفاوتون في الكمال منهم الكامل والأكمل ولم يتعين منهم بما تعين به صلى الله عليه وسلم في هذا الوجود من الكمال الذي قطع له بانفراده فيه، شهدت له بذلك أخلاقه وأحواله وأفعاله وبعض أقواله، فهو الإنسان الكامل، والباقون من الأنبياء والأولياء الكمل صلوات الله عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل، ومنتسبون إليه انتساب الفاضل إلى الأفضل، ولكن مطلق لفظ الإنسان الكامل حيث وقع في مؤلفاتي إنما أريد به محمدا صلى الله عليه وسلم تأدبا لمقامه الأعلى ومحله الأكمل الاسنى»(١٥٧).

ولم يترك «ابن عربي» فرصة للتعبير عن إجلاله لهذا النبي الكريم على ضوء هذه الحقيقة التي أدركها إلا وجلي فيها ببيانه الصافي ومنطقة الوافي شعرا كان أو نثرا، ومن ذلك ما نقرؤه له

مباهيا بوراثته لذلك الرسول الكامل ومبايعا له ومقارنا بينه وبين موسى عليه السلام، حيث أن موسى شرف بالكلام فقط، أما محمد فقد شرف بالإسراء والرؤية والمشاهدة.

ورثت الهاشمي أخا قريش بأوضح ما يكون من الدليل
أبايعه على الإسلام كشفا وإيمانا لألحق بالرعيل

(١٥٧) الإنسان الكامل للجهلى جـ ٢ ص ٤٤.

أقـوم بـه وعنـه إليـه حتـى أبينـه لأبنـاء السـبيل
سرى في النور حتى كان أدنى مـن القوسـين فـي ظـل ظليـل
وشـرف بـالكلام أخـوه موسـى علـى كثـب وذلـك بالمسـيل
وأيـن العـرش مـن واد بقـاع كما أين الكليم من الخليل؟

ابن عربي بين أنصاره وخصومه

عبر «ابن عربي» عن الأسرار التي لاحت له في أثناء طريقه وعن المعارف التي كوشف بها أو أدركها بذوقه، ومن ذلك تعبيره عن الحب الإلهي وإفاضته فيه، وحديثه عن الحقيقة المحمدية بالصورة التي أوضحها وبين رأيه فيها، كما عبر عن مقابلاته مع الأنبياء والسابقين والأولياء والمؤمنين، وعبر عن مشاهداته لمختلف الروحانيات التي لا تقع تحت الحس ولا يمكن أن يدركها العقل، وعبر عن أسرار المقامات والأحوال وما يصحبها من تأثيرات نفسية وروحية، وتحدث عن الدقائق الخفية التي تنتاب الصوفي في نهاية طريقه فيرى أشياء تحار فيها الإفهام ويدق فيها الكلام إلى غير ذلك.

و«ابن عربي» ترك ثروة سخية من غير شك في ذلك، وهذه الثروة عرضت أمام مجاهر النقد القديم والحديث، وأدلى كل من القدماء والمحدثين برأيه في قوله، فمن معجب وناقم ومن مدافع ومهاجم.

ولكن الذي يحمد لابن عربي هو حيدته في التعبير – على حد قول الدكتور زكي مبارك. عنه في ذلك: أنه علم الناس كيف يخوضون في أخطر الأحاديث ثم يسلمون[١٥٨]، فابن عربي في

وتعبيره عن هذه الأسرار كان متمكنا من نفسه، لم تأخذه الدهشة، ولم يغلب عليه «الشطح» في كل أحواله، وكان أمينا في تعبيره فلم يصور شيئا خارجا على حدود الشريعة وكل كلمة قالها أو كتبها استطاع الصوفية أن يجدوا لها متأولا شرعيا من غير تكلف ينسبونها إليه.

وحدة الوجود:

ولكن برغم ذلك فقد وجد بعض الطاعنين له منافذ ينفذون منها إلى الطعن عليه والنيل منه. ومن ذلك الفكرة التي أسندت إليه، وهي فكرة «وحدة الوجود» فقد أشير إليه على انه صاحب مذهب في الوجود وفي الوحدة، وفي صدور الموجودات عن موجدها، ويصح أن نوضح المقصود بوحدة الوجود لدى الصوفية.

وحدة الوجود لدى الصوفية ناتجة عن طول تأملهم في آيات الله وآلائه التي أبدعها فبدا عليها اثر خلقه وإنشائه وإبداعه، فنور الله وقدرته وجلاله وجماله يبدو على هذه الآيات كما يبدو تأثير المؤثر

---

(١٥٨) التصوف الإسلامي وأثره في الأدب والأخلاق جـ ١ ص ٢٠٣.

في الأثر، وقد يقرب من هذا المعنى ما أراده ذو النون المصري حين هتف يناجي ربه:- «الهي ما أصغيت إلى صوت حيوان ولا إلى حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوي ريح ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على انه ليس كمثلك شئ.. ومثل هذا قول الدكتور زكي مبارك على لون من التجوز:

ومن أنت يا ربي؟ اجبني فإنني   رأيتك بين الحسن والزهر والماء

وهذا لا يقصد منه حلول أو اتحاد أو اندماج بين الخالق والمخلوق. ولكن يقصد منه ظهور قدرة الله وآثاره وعظمته في العالم بأسره.

وفي كل شئ له آية   تدل على أنه الواحد

وهذا المعنى يعبر عنه استاذنا السيد محمد علي منصور الأقدمي – رضي الله عنه.

وأينما وليت لم أر غيره   محيطًا، ولم يدركه عبد هواه

ومعنى يدركه أي يدرك هذه الحقيقة وهي شهود الإحاطة. وعبد الهوى محال أن يدرك مظاهر قدرة الله تعالى المحيطة.

فوحدة الوجود في رأي الصوفية غيرها في رأي الغربيين والمستشرقين، لأن الصوفية يفرقون بين الله والعالم، ولكنهم يرون أن

هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا، وإنما الوجود الحق لله تعالى، فليس هو العالم ولا العالم هو[159]. أما غيرهم فيرون أن الروح والمادة شيء واحد.

وحقيقة هذه الحقيقة عند الصوفية قائمة على المعرفة الحقيقية لله، فقد قال معروف الكوخي: «إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصيرة فلا يرى إلا الله» وهذا ما يعبر عنه الشيخ حسن رضوان في كتابه روض القلوب المستطاب:-

وكل ما سواه نجم آفل　بل في شهود العارفين باطل

ويعلق على ذلك بقوله:- «أن كل ما سوى الله تعالى من الأعيان الظاهرة والماهيات الممكنة علوية أو سفلية باطل في شهود العارفين من حيث ذاته، فلا حقيقة له أزلا وأبدا، وإنما الموجود حقيقة كذلك هو ذات الحق تعالى، وليس لتلك الأعيان والماهيات الظاهرة وجود حقيقي ذاتي لها».

ويستشهد الشيخ حسن رضوان على بيان هذه الحقيقة وإجلائها بقول الجيلي:

وما الخلق في التمثال إلا كثلجة　وأنت بها الماء الذي هو نابع

وما الثلج في تحقيقنا غير مائه　وغير أن في حكم دعته الشرائع

(١٥٩) أعلام التصوف الإسلامي لطه عبد الباقي سرور جـ ١ ص ٨٥.

ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه ويوضع حكم الماء والأمر واقع
تجمعت الأضدا في واحد البها وفيه تلاشت وهو عنهن ساطع

فمثل رضي الله عنه العالم بالثلج، والحق تعالى– وله المثل الأعلى – بالماء، وليس إلا الماء في الحقيقة والثلجية طارئة عليه.

فلــــــيس إلا الله والمظـــــاهر لجملة الأسماء وهو الظاهر[١٦٠]

وهذه المعاني مستفادة من بعض الآثار «كان الله ولا شئ معه وهو الآن ما عليه كان» ويوضح هذا المعنى استشهاد الإمام الرندي في شرحه لحكم ابن عطاء الله السكندري بقول القائل:–

الله قـل، وذر الوجـود ومـا حـوى ان كنـــت مرتـــادا لنيـــل كمـــال
كـــــل دون الله أن حققتــــــه عـــدم علـــى التفصـــيل والإجمـــال
واعلـــم بأنـــك والعـــوالم كلهـــا لـــولاه فـــي محـــو وفـــي اضـــمحلال
مـــن لا وجـــود لذاتـــه فـــي ذاتـــه فوجـــوده لـــولاه عـــين محـــال
فالعـارفون فنـوا بـأن لـم يشـهدوا شـــيئا ســـوى المتكبـــر المتعـــالي
ورأوا ســواه علـى الحقيقـة هالكـا فـــي الحـــال والماضـــي والاســـتقبال

(١٦٠) روض القلوب المستطاب ص ٦.

وذلك عند شرحه لهذه الحكمة العطائية: «مما يدلك على وجود قهره – سبحانه – أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه»[١٦١].

ويفصل ابن عجيبة هذا الأمر تفصيلا عجيبا حيث يقول:– «قال بعضهم: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ولم أره حديثا، وإنما هو من قول بعض العارفين: فأهل السير من المريدين يشهدون الكون ثم يشهدون المكون عنده وبأثره، فيمتحق الكون من نظرهم إليه، وهذا حال المستشرق، وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل وجود الخلق، بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلا، إذ لا ثبوت له عندهم، لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة فانون عن الحكمة غرقى في بحار الأنوار، مطموس عليهم الآثار، وفي هذا المقام قال بعضهم: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان إنما يشهدون الكون ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده، وإنما يستدلون على وجوده بوجود الكون، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين، فقد أعوزهم وجود الأنوار وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار، ثم يستشهد ابن عجيبة بقول القائل:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يبصر القمرا

---

(١٦١) شرح الرندي على حكم ابن عطاء الله جـ ١ ص ١٩.

لكـن بطنـت بمـا أظهـرت محتجبـا   وكيف يعرف من بالعزة استترا؟[١٦٢]

وقد أكثر الصوفية في التعبير عن هذه الحقيقة حتى أوهم هذا الإكثار فكرة الخلط بين القديم والحديث، ولكن حاشا للصوفية – وهم أعرف الناس بالله – أن يقصدوا ذلك، وهم يستأنسون بقول علي كرم الله وجهه «الحق تعالى ليس من شئ ولا في شئ ولا فوق شئ ولا تحت شئ، إذ لو كان من شئ لكان مخلوقا ولو كان فوق شئ لكان محمولا، ولو كان في شئ لكان محصورا، ولو كان تحت شئ لكان مقهورا».

وكل ما يؤكده الصوفية هو هذا المعنى المستفاد من الأثر: كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، فليس الكون في نظرهم كما يعتقد الغربيون شيئا واحدا لا فرق بين قديم وحديث على نحو ما فهم المستشرق «نيكلسون» في كتابة الصوفية والإسلام، ودعواه بأن الصوفية انتهوا إلى أن العالم جميعه وفيه الإنسان واحد مع الله بالضرورة[١٦٣].

وقد سبق الإشارة إلى كثير من مأثورات الصوفية التي تؤكد فهمهم حول هذه الحقيقة بما لا يتنافى مع قدرة الله وديموميته

---

(١٦٢) أيقاظ الهمم ص ٥١.

(١٦٣) التصوف عند المستشرقين ص ٢٩.

وإحاطته وفرديته. ويؤكد الدكتور «عبد الوهاب عزام» ضرورة مراعاة الفرق بين فهم الصوفية وغيرهم لحقيقة وحدة الوجود بقوله:-

«ينبغي أن يفرق بين وحدة الوجود التي رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود في رأي العطار وغيره من الصوفية، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شئ واحد، والصوفية يفرقون بين الله والعالم، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا، وإنما الوجود لله تعالى فليس هو العالم ولا العالم هو»[(١٦٤)].

وعلى هذا الفهم يمكن أن يفسر كلام «ابن عربي» الذي يفهم منه فكرة وحدة الوجود. وهذا الكلام هو الذي أشار إليه الدكتور أبو العلا عفيفي في دائرة المعارف الإسلامية بقوله: ويتلخص مذهبه (وحدة الوجود) في عبارته القصيرة الواردة في الفتوحات جـ ٢ ص ٦٠٤ وهي «سبحان من خلق الأشياء وهو عينها» وفي البيتين الآتيين الواردين في الفصوص إشارة إلى هذا المعنى:-

يا خالق الأشياء في نفسه ... أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه ... فيك فأنت الضيق الواسع

فابن عربي فيما ورد على لسانه من عبارات توهم في ظاهرها فكرة الوحدة بين الخالق والمخلوق لا ينبغي أن تفهم إلا على أساس

---

(١٦٤) أعلام التصوف الإسلامي جـ ١ ص ٨٥.

فهم الصوفية من هذه الوحدة، وهو الذي أشير إليه فيما سبق. وقصدوا منه انه لا موجود على الحقيقة إلا الله تعالى، وليس معنى ذلك أن الله هو العالم أو العالم هو الله.

سلامة عقيدة ابن عربي:

وليس في عقيدة ابن عربي تغيير لعقيدة التوحيد الإسلامي، وليس من السهل الحكم على رجل كابن عربي بأن يغير عقيدة التوحيد الإسلامي، وهي لا اله إلا الله، وهو الذي كان يعظم الشريعة أيما تعظيم ولكنه يقرر:- «أن الحق ثابت في إلوهيته قبل إثبات المثبت، ومن كان ثابتا لا يحتاج إلى إثباتك، إذ ما ثم من تثبت إلوهيته من الخلق حتى ينفى، وإنما تعبد المؤمن بذلك على سبيل التلاوة ليؤجره الله على ذلك» وهذا ذوق عال في الفهم.

وأما قوله: «لا موجود إلا الله» فمعناه: أنه لا موجود قائم بنفسه إلا هو تعالى، وما سواه قائم بغيره، كما أشار إليه حديث: ألا كل شئ ما خلا الله باطل، ومن كانت حقيقته كذلك فهو إلى العدم أقرب، إذ هو وجود مسبوق بعدم، وفي حال وجوده متردد بين وجود وعدم، لا تخلص لأحد الطرفين، فان صح أن الشيخ ابن عربي قال: لا موجود إلا الله فإنما قال ذلك عندما تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق تعالى بقلبه، كما قال أبو القاسم الجنيد: من شهد الحق لم يرد الخلق.

وأما قوله مما يفهم منه أنه جعل الحق والخلق شيئا واحدا مثل:-

فيحمدني وأحمده ويعبدني واعبده

فإن معنى يحمدني يشكرني إذا أطعته كما في قوله تعالى: اذكروني أذكركم، ويعبدني معناها يطيعني، بإجابته دعائي، كما قال تعالى: لا تعبدوا الشيطان أي لا تطيعوه.

وإذا كان قد ورد في الفتوحات العبارة التي وردت سابقا مما يفهم منها الوحدة بين الحق والخلق، وهي: سبحان من خلق الأشياء وهو عينها، فقد ورد في كثير من المواضع ما يدل صراحة على أن العالم ما هو عين الحق تعالى ولا الحق عين العالم، ويستدل «ابن عربي» على ذلك بدليل عقلي، وهو أنه لو كان عين الحق لما صح أن يكون الله سبحانه بديعا[١٦٥].

وقد مر بنا في المحادثة التي تمت بينه وبين هارون النبي عليه الصلاة والسلام ما يشير إلى حقيقة رأيه وفي أنه لم يقصد هذا الاندماج بين الحق والخلق.

---

(١٦٥) اليواقيت والجواهر ص ١٥ بتصرف.

ولقد أفرد الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر مبحثا خاصا ينفي فيه عن الشيخ الأكبر ما ألصقه به خصومه من دعوى الحلول والاتحاد مستشهدا على براءته بكلامه هو في الفتوحات وغيرها.

وكل ما ورد عنه من ألفاظ موهمة وجدت لدى ذائقي كلامه وفاهمي إشاراته متأولا صحيحا، ومن ذلك ما يرويه المقري في نفخ الطيب عن محيي الدين بن عربي: «قال رحمه الله تعالى قال لي بعض إخواني لما سمع هذا البيت:-

يـــا مـــن يرانـــي ولا أراه كـــم ذا أراه ولا يرانـــي

كيف تقول: أنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟

فقلت له مرتجلا:

يـــا مـــن يرانـــي مجرمـــا ولا أراه آخـــذا

كـــم ذا أراه منعمـــا ولا يرانـــي لائـــذا

ويعقب المقري على ذلك قائلا: «من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ – رحمه الله تعالى – مؤول وأنه لا يقصد ظاهره، وإنما له محامل تليق به، وكفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة فأحسن الظن به

ولا تنتقد بل اعتقد، وللناس في هذا المعنى كلام كثير، والتسليم أحسن والله سبحانه بكلام أوليائه اعلم»[١٦٦].

ومما يحكيه المقري عن اليافعي قوله دفاعا عن ابن عربي: «وما ينسب إلى المشايخ له محامل: الأول أنه لم تصح نسبته إليهم، الثاني بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق، فان لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه، وإنما يعلمه العارفون، الثالث أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة، والسكران سكرا مباحا غير مؤاخد ولا مكلف[١٦٧].

هذا وابن عربي دائما يؤكد أن تحصيل المعرفة لا يتم إلا عن طريق التقوى وسلامة العقيدة وقوة الإيمان وحسن العمل.

الحملات التي وجهت ضده:

وقد تعرض «ابن عربي» لحملة قاسية في حياته وبعد مماته، بناء على ما ورد في كتبه المنظومة والمنثورة من عبارات، وقف عندها البعض ولم يستطيعوا استساغتها، وقد مر بنا كيف انه اتهم في أثناء زيارته لمصر بالزندقة، وقبض عليه، وأوشك أن يلقي حتفه لولا أن قيض الله له من شفع له وتأول كلامه.

---

(١٦٦) نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٣.

(١٦٧) المرجع السابق ص ١٥٨.

وقد عرضت كتب التراجم لكثير من الأسباب التي تذرع بها خصوم «ابن عربي» ومن بينها القول بوحدة الوجود التي أشير إليها. كما عرضت أسماء خصومه وأسماء أنصاره. وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية بعض الأسماء من هؤلاء وهؤلاء. فذكرت من المعارضين: ابن الخياط والحافظ الذهبي وابن تيمية وابن إياس والتفتازاني، وعلى القارئ، والإمام جمال الدين بن محمد بن نور الدين.

وذكرت من المناصرين: مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس، وسراج الدين المخزومي، وكمال الدين الزملكاني، وقطب الدين الحمودي، وصلاح الدين الصفدي، وشهاب الدين عمر السهر وردي ومؤيد الدين الخجندي، وكمال الدين الكاش، وفخر الدين الرازي، ومحمد المغربي أستاذ الجلال السيوطي، وبدر الدين بن جماعة، وسراج الدين البلقيني، وتقى الدين ألسبكي، والجلال السيوطي، وابن كمال باشا، وعبد الرازق القاشاني وغيرهم.

وهي قائمة جديرة ببيان منزلة هذا الرجل الذي اجبر هؤلاء جميعا – وغيرهم – على أن يكتبوا عنه مهاجمين أو مدافعين.

بعض الأسباب التي أدت إلى الإنكار عليه:

أما الأسباب التي تذرع بها خصومه، فمن بينها القول بوحدة الوجود، وقد سبق الحديث عن ذلك.

ومن بينها قوله «بإيمان فرعون» وهذا القول غير ثابت وروده عن «ابن عربي» فقد تحقق كثير من العلماء بأنه قد دس عليه كثير من الآراء في كتبه. ذكر ذلك الشعراني في اليواقيت والجواهر، وقرر بأنه ذكر في الباب الثاني والستين من الفتوحات بأن فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها ابد الآبدين، والفتوحات من أواخر مؤلفاته.

على أنه إذا ثبت ذلك في وروده عنه فانه لم ينفرد وحده بهذا الرأي، فقد ذهب بعض السلف إلى قبول إيمانه لما حكي عنه الله انه قال: آمنت انه لا اله إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. وكان هذا آخر عهده بالدنيا، وقال أبو بكر الباقلاني قبول إيمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال، ولم يرد لنا نص صريح انه مات على كفره ودليل جمهور السلف والخلف على انه آمن عند اليأس، وإيمان أهل اليأس لا يقبل[١٦٨].

---

(١٦٨) اليواقيت والجواهر ص ٦٦.

وابن عربي في اجتهاده – على فرض ثبوت ذلك عنه – لا يؤدي إلى هذه الضجة التي أثيرت حوله وأخرجه أصحابها من دائرة أهل الإيمان إلى دائرة أهل الكفر، ولعمري للفتوى بإيمان فرعون أيسر من الفتوى بكفر رجل من أهل اليقين والإيمان.

وقد أورد صاحب نفح الطيب أن بعض العلماء تأول أقول الشيخ محيي الدين بإيمان فرعون أن مراده بفرعون: النفس، بدليل قوله:

قلبي قطبي، وقالبي أجفاني سري خضري، وعينه عرفاني
روحي هارون، وكليمي موسى نفسي فرعون، والهوى هاماني[١٦٩]

وعلى ذلك فيحمل كلامه على محمل الإشارات الصوفية التي يدق فهمها على كثير من العقول.

ومن الأسباب التي هوجم من أجلها ما كان يحدث به من لقاء بينه وبين أرواح بعض الأنبياء والأولياء السابقين على نحو ما سبق الإشارة إليه، وتلك حالة خاصة لبعض الذين اصطفاهم الله من عباده، وقد ورد في بعض الآثار أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف. وليس هناك تعارف أعظم من الاجتماع على معرفة الله، فتلك هي الألفة التي تربط بين الأرواح

---

(١٦٩) نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٦.

العارفة برباط المعرفة المتين، وليس ما يمنع لقاء هذه الأرواح التي لا يقف أمامها حجاب ولا يحول دون لقائها حس.

كما أن من الأسباب التي أدت إلى ذلك ما كان يفيض به من تعبيرات الشوق والهيام في قصائد غزلية يظنها السامع أو القارئ موجهة إلى إنسان، ولكنها في الحقيقة موجهة إلى معان روحية عميقة، واستعمل فيها الألفاظ الحسية جريا على طريقة الصوفية في رموزهم وإشاراتهم. وهو ليس وحده الذي استعمل الرموز في التعبير عن روحانياته، ولكن كثيرا منهم لجأ إلى ذلك لسببين في رأي الأستاذ عبد الحكيم حسان: أحدهما: إن كثيرا من نزعاتهم يخالف ظاهر الشريعة فلا يمكن الإفصاح عنها خوفا من سلطان الفقهاء الذين كانوا يتبعون الصوفية بالنكير والتشهير، ويحاولون الزج بهم في محاكمات تنتهي في بعض الأحيان بقتلهم، والآخر أن اللغة العادية تقصر عن أداء كل ما عندهم من معان، لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق، ويعبرون عن ذلك بقولهم:

وان قميصا خيط من نسج تسعة وعشرين حرفا عن معاليك يقصر

فلم يجد الصوفية – إذن – وسيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأذواقهم إلا الرمز الذي لم يجر على قاعدة واحدة سار

عليهـا الصـوفية، وإنمـا اختلـف بـاختلاف الموضـوعات التـي تناولوها[170].

يقول الدكتور محمد مصطفى حلمي: «ومن هنا ذهب فريق من المتعصبين على التصوف والصوفية تعصبا قوامه سوء النية أو نقص الفطرة أو العجز عن فهم الحقائق الدقيقة، والمعاني الرقيقة إلى الإرجاف بالصوفية والتشنيع عليهم، والغض من القيم الروحية والمعاني الخفية التي تنطوي عليها الألفاظ والعبارات الغزلية والخمرية، وأما أن هذه الألفاظ رموز وإشارات فذلك ما لا تفهمه عقول المتعصبين.. ومن هذا القبيل ما وقع في حق محيي الدين ابن عربي، إذ ثار به وشنع عليه كل من العامة ورجال الدين عندما وقفوا على ما نظمه من شعر في حبه الإلهي.. [171]».

ومن الأسباب التي أدت إلى مهاجمته ما كان يحدث به تجليات واشراقات كانت تحدث له، لا يجد لها الناس علة عقلية ممكنة ومن ذلك ما حدث به في أثناء وجوده بمصر. وليس الغريب أن تثير أمثال هذه الاشراقات والتجليات ثائرة الذين لم يشاهدوا ما شاهد «ابن عربي» وأمثاله ممن ساروا على هذا الدرب الشاق المضئ.

([170]) التصوف في الشعر العربي ص ٨٧.

([171]) الحب الالهي في التصوف الإسلامي الدكتور محمد مصطفى حلمي ص ١٠.

ولقد كان الشيخ الأكبر يتوقع ذلك فقد قال: «ولقد وقع لنا وللعارفين أمور ومحن بواسطة إظهارنا المعارف والإسرار، وشهدوا فينا بالزندقة وآذونا اشد الأذى، وصرنا كرسول كذبة قومه وما آمن معه إلا قليل[١٧٢]».

والشعراني أحد الذين وقفوا في صف «ابن عربي» ووصفه بأنه من أكابر أهل العطايا الذين كشف لهم الحق عن جمال وجهه الباقي فتلألأت سبحاته بالأنوار الساطعة إلى يوم التلاق، وحكم على من تعرض لتخطئته أو تكفيره بالجهل والحرمان وعدم الفهم وضعف الإيمان[١٧٣].

والخوارق التي تظهر للأولياء إنما هي إكرامات الله لهم أفاضها عليهم تقوية لعزائمهم، وحثا لهم على الجهاد وتأنيسا لهم في مضيهم نحو غايتهم، وما يحدث لهم من إشراق على بعض الأجسام المادية إنما هو أثر من أثار تجلي الجمال الإلهي الذي يحيل الظلام نورا والحس معنى والمادة روحا، وما ذلك إلا صدى لقول الحكيم العزيز «وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم».

ولقد كان لنا أخ ادخره الله عنده، حدثنا مرة أنه مرت عليه أوقات كان يرى فيها كل شئ أمامه نورا خالصا لا حدود له، حتى

---

(١٧٢) اليواقيت والجواهر ص ٣١.

(١٧٣) المرجع السابق ص ١٥.

الأجسام والحواجز والأشجار كانت في نظره كوائن نورانية خالصة، لذلك كان يتردد في أن يطلق عليها أسماءها العرفية لأنها لم تعد تنطبق عليها كما يراها في هذه الآونة. ولقد قضى هذا الأخ إلى جوار ربه راضيا مرضيا.

ولو تأملنا معنى قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» لرأينا مصداق ذلك فسبحان من أشرق الوجود بنوره وعم العالم ضياؤه، وقد ابتهل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

ولعل الرافعي يقصد هذه المعاني بتعبيره: «فإن الكون كله جوهر واحد هو النور، حتى الجبل هو نور مائي، وحتى الحديد والذهب والتراب كل ذلك نور صرفته القدرة الإلهية تصريفها المعجز، فكان على ما نرى، ظاهر مخيل يلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقة قادرة على غير ما نرى»[١٧٤].

على أنه لا يمكن أن نبرئ بعض خصوم «ابن عربي» من شهوة الحقد التي يبتلي الله بها بعض الناس فينكرون على الناجحين أحوالهم، ويترصدون لهم الطرق، ويبثون أمامهم الفتن ويزرعون الشوك، ويدسون عليهم ما هم منه براء. محاولين بذلك الحط من

---

(١٧٤) وحي القلم جـ ٢ ص ٢١٥.

قدرهم والأضعاف من شأنهم، وتلك حالة عامة تكاد توجد في كل عصر ومكان.

قال المناوي: «وفريق قصد بالإنكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه لكونه وجد قرنيه (ومعاصره) يعتقده وينتصر له، فحملته حمية الجاهلية على معاكسته، فبالغ في خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه، وقد شوهد عود الخذلان والخمول على هذا الفريق وعدم الانتفاع بعلومهم وتصانيفهم على حسنها»[١٧٥].

ولو تتبعنا سير القادة والعظماء والمصلحين في كل زمان ومكان لوجدنا صحة انطباق هذه القاعدة التي تكاد لا تتخلف، ويستشهد الشعراني في طبقاته وفي غيرها من الكتب على صدق ذلك ببعض الحوادث التي وقعت للصالحين والنابهين، ويضرب المثل بما لاقاه الأئمة المجتهدين من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل. وبما لاقاه ذو النون والسلمي وابن خلكان والبسطامي والتستري والجنيد والشاذلي والعز بن عبد السلام وغيرهم.

وليس بغريب، فهذه المحن هي التي تصهر الرجال وتصنعهم، وقد صدق جل وعز، إذ يقول«وجعلنا بعضكم لبعض فتنة،

(١٧٥) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩١.

أتصبرون؟» وجاء في التوراة: ما كان رجل حليم في قوم قط إلا بغوا عليه وحسدوه[١٧٦].

رجوع بعض المنكرين عليه عن إنكارهم:

ولو استنطقنا كتب «ابن عربي» الزاخرة لشهدت له بكل فضل، واثنت عليه الثناء الأوفى، وآثاره شاهدة بفضله ناطقة بذكره إلى جانب ما فاضت به السنة المعاصرين له من المنصفين ومن ساروا على نهجه وانتفعوا بعلومه وأدبه

وقد شهد له كثير من هؤلاء بالتقدم والمعرفة التي كان من حقه علينا أن نثبت طرفا منها، كما رجع من الحط عليه بعض من أنكروا عليه أولا.

ومن هؤلاء «الحافظ الذهبي» وهو أبو عبد الله شمس الدين الذهبي الحافظ، محدث وقته ولد سنة ٦٧٣هـ وتوفي سنة ٧٤٨هـ بدمشق. فقد شهد «لابن عربي» وقال في حقه: «أن له توسعا في الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا في التصوف وتواليف جمة في العرفان، ولولا شطحة في كلامه وشعره لم يكن به بأس، ولعل

(١٧٦) راجع اليواقيت والجواهر ص ١٦ ما بعدها.

ذلك وقع منه في حال سكره وغيبته فيرجى له الخير»[177]. وقال أيضا: «ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلا»[178].

ومنهم العز بن عبد السلام شيخ الإسلام والمسلمين، واحد أعلام الأئمة المشهورين ولد سنة ٥٧٨ وكان حسن المحاضرة لطيف الدرس وتوفى سنة ٦٦٠هـ، وكان ينكر على ابن عربي في أول أمره، فلما عرف مقامه وشهد له ورجع عن إنكاره، وقرر: أن محيي الدين قطب زمانه[179].

شهادة المحققين له:

ومن المعجبين بابن عربي الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط، وهو شيخ الإسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد ابن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزابادي ولد سنة ٧٢٩هـ

وتوفى سنة ٨١٧هـ، وكان عظيم الاعتقاد في «ابن عربي» يحمل كلامه على خير محامله، وطرز شرحه للبخاري بكثير من كلامه، وألف كتابا للرد على «ابن الخياط» احد خصوم ابن عربي سماه: الاغتباط بمعالجة ابن الخياط، وقال عن ابن عربي «انه شيخ

(١٧٧) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠١.

(١٧٨) المرجع السابق ص ١٤٦.

(١٧٩) المرجع السابق ص ١٤٣.

الطريقـة حـالا وعلمـا، وأمـام الحقيقـة حـدا ورسـما ومحيـي رسـوم المعارف فعلا واسما:

إذا تغلغل فكر المرء في طرف مـن بحـره غرقـت فيـه خـواطره

وهو عباب لا تكدره الدلاء، وسحاب لا تتقاصر عنه الانواء، وكانـت دعواتـه تختـرق السـبع الطبـاق، وتفتـرق بركاتـه فـتملأ الآفاق[١٨٠].

وتحركت همة «الفيروزابادي» في الدفاع عن «ابن عربي» حين وجد الجدال قد ثار حوله بسبب «جمال الدين بن الخياط» اليمني، وكان قد كتب مسائل في درج، وأرسلها إلى العلماء ببلاد الإسلام، وقال: هذه عقائد الشيخ محيي الدين بن العربي، ذكر فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين، مما أثار ثائرة بعض العلماء الذين بادروا من غير تثبيت إلى الطعن في ابن عربي[١٨١]. فدعا ذلك المنصفين ومنهم «الفيروزابادي» إلى التصدي لبيان الحق وإظهار وجه الصواب، وتبرئة الشيخ الأكبر مما ألصقه به هؤلاء.

وممن ذكر «ابن عربي» بالخير الإمام العالم بالله تعالى «صفى الدين حسين بن جمال الدين الازدي الأنصاري» في رسالته الفريدة

---

(١٨٠) المرجع السابق ص ١٣٨.

(١٨١) اليواقيت والجواهر ص ٩.

المحتوية على من رأي من سادات عصره قال: «ورأيت بدمشق الشيخ الأمام العارف الوحيد محيي الدين بن العربي، وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية، وما وقر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة، وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا، لا يكترث بالوجود مقبلا كان او معرضا»[١٨٢].

كما ذكره بقوله «هو الشيخ الإمام المحقق رأس إجلاء العارفين والمحققين»[١٨٣].

وقال عنه الشيخ «محيي الدين محمد بن مسدي» في معجمه البديع المحتوي على ثلاثة مجلدات أنه: «خاض بحار تلك العبارات، وتحقق بمحيا تلك الإشارات، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والإقدام والإقدام ومواقف النهايات في مزالق الأقدام، ولهذا ما ارتبت في أمره»[١٨٤].

ويدفع عنه «ابن العماد» بقوله: «وقع له في في تضاعيف كتبه كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها، وكانت سببا لأعراض كثيرين ممن لم يحسنوا الظن به، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين والعلماء العاملين والأئمة الوارثين: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس

---

(١٨٢) نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٣.

(١٨٣) دائرة معارف البستاني جـ ١ مادة ابن عربي.

(١٨٤) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٥٩.

هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلح عليها متأخر وأهل الطريق غيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون، فاصطلحوا على الكتابة عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد غير مبالين بذلك لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها».

ويروي الشيخ «برهان الدين البقاعي» في معجمه: «حكى لي الشيخ تقي الدين أبو بكر بن أبي ألوفا المقدسي الشافعي قال:«وهو (أي ابن عربي) أمثل الصوفية في زماننا»[185].

ويعلل الشيخ «زين الدين الخافي» عبارات «ابن عربي» الموهمة بقوله: «إن العبد إذا تخلق ثم تحقق ثم جذب اضمحلت ذاته وذهبت صفاته وتخلص من السوي، فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق فيطلع على كل شئ ويرى الله عند كل شئ فيغيب بالله عن كل شئ»[186].

وقال المناوي «والذي اعتقده ولا يصح غيره أن الإمام «ابن عربي» ولي صالح وعالم ناصح، وإنما فوق إليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه. على انه دست في كتبه مقالات قدره يجل عنها».

وفي رسالة «لابن كمال باشا» وجهها في توضيح مناقب «ابن عربي» جاء فيها: «انه مجتهد كامل ومرشد فاضل، له مناقب عجيبة

---

(١٨٥) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠ وما بعدها.

(١٨٦) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠ وما بعدها.

وخوارق غريبة وتلامذة كثيرة مقبولة عند العلماء والفضلاء، فمن أنكره فقد اخط، وان أصر في إنكاره فقد ضل يجب على السلطان تأديبه».

وتذكر دائرة معارف البستاني عنه «وقد أجمع المحققون على جلالته في سائر العلوم كما تشهد بذلك كتبه، وما أنكر عليه من أنكر إلا لدقة كلامه لا غير، فأنكروا على من يطالع من غير سلوك طريق الرياضة خوفا من حصول شبهة في معتقده»[١٨٧].

وسئل عن «ابن عربي» الشيخ «قطب الدين الحموي» حين رجع من الشام، فقيل له: كيف وجدت الشيخ محيي الدين؟ فقال: وجدته في العلم والزهد والمعارف بحرا زاخرا لا ساحل له، قال وأنشدني الشيخ بلفظه من جملة أبيات:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدري الناس اين توجهنا[١٨٨]

وقال عنه صلاح الدين الصفدي: «من أراد أن ينظر إلى كلام أهل العلوم أللدنية فلينظر في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله»[١٨٩].

---

(١٨٧) دائرة معارف البستاني جـ ١ مادة ابن عربي.

(١٨٨) اليواقيت والجواهر ص ١٠.

(١٨٩) اليواقيت والجواهر ص ١٠.

وذكر الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر وفي غيره من الكتب عددا كبيرا من المثنين على «ابن عربي» وكلهم من الإعلام الأفاضل مثل قطب الدين الشيرازي، ومؤيد الدين الجخندي، وفخر الدين الرازي، ومحيي الدين النووي، والإمام ابن سعد اليافعي، ومحمد المغربي الشاذلي شيخ جلال الدين السيوطي، وسراج الدين المخزومي، وبدر الدين بن جماعة، كما ذكر جملة من أقوالهم التي يمجدون فيها الشيخ الأكبر وينسبونه إلى الفضل والكمال.

ومن الشيوخ من ألف كتبا في الدفاع عن ابن عربي ورد المعارضين عنه كما حدث من الفيروزابادي والشعراني، وكما حدث من جلال الدين السيوطي الذي ألف كتابا سماه تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي. ردا على كتاب" تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي"، الذي ألفه برهان الدين البقاعي، وكما حدث من سراج الدين المخزومي الذي ألف كتابا سماه: كشف الغطاء عن أسرار محيي الدين.

وجملة القول: فان «الذين اكبروا ابن عربي أكبارا خالصا وحسن اعتقادهم فيه بحيث لم تشبه شائبة من تشكيك فيه أو تكفير له، فكثيرون لا يتسع المقام لإحصائهم واستقصاء آرائهم»[190]. وحسبنا ما ذكرنا منهم على سبيل المثال لا على سبيل الاستقصاء.

---

(١٩٠) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٧.

آثار ابن عربي

(١) أولاده:

ذكر المقري في نفح الطيب أن «ابن عربي» ولد له غلام في «ملطية» في رمضان سنة ٦١٨هـ في أثناء رحلته إليها وقد اسماه «سعد الدين». وقد شب هذا الغلام على نهج أبيه، فسمع الحديث وقام بالتدريس ونبغ في الأدب وقال الشعر الجيد الذي جمع في ديوان وقد توفى سنة ٦٥٦هـ.

وله أخ آخر اسمه عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عربي توفي بالصالحية سنة ٦٦٧هـ، ودفن هذان الأخوان بجوار أبيهما في سفح جبل قاسيون بتربة القاضي ابن الزكي الذي كان يجل الشيخ إجلالا عظيما وانزله داره وأجزى له عطاء يوميا قدره ثلاثون درهما وزوجه ابنته فلما توفي دفن بمدافن أسرته.

كما أعقب «ابن عربي» بنتا اسماها «زينب» وقد ذكر أبوها عنها منذ طفولتها الأولى كانت تصاحبها آيات خارقة.

(٢) تلاميذه وإخوانه:

للشيخ الأكبر تلاميذ وإخوان كثيرون. يضيق المقام عن الحديث عنهم بالتفصيل، ولكنا نشير الى بعضهم، فمن تلاميذه الذين تحدث عنهم في كتبه: بدر الدين الحبشي.. وكان ملازما له، وأثيرا لديه.

ويذكر بعض المؤلفين أن من تلاميذه ابن الفارض. واتجه النابلسي شارح ديوان عمر بن الفارض هذا الاتجاه عند شرحه لبعض قصائد الديوان[١٩١].

ومن تلاميذه وأبرزهم «صدر الدين القونوي» الذي كان له فضل كبير في المحافظة على مؤلفاته ونشر تعاليمه وعلومه.

ومن أصدقائه الكثيرين الذين كان يجلهم الشيخ «أبو محمد ابن عبد العزيز التونسي» الذي استضاف ابن عربي في أثناء زيارته لتونس.

ومنهم «مكين الدين الأصفهاني» أمام مقام إبراهيم بمكة.

ومنهم «فخر الدين الرازي» الذي كان يكاتبه كثيرا.

ومنهم «أبو العباس الحرار» صاحب المناقب المشهورة.

---

(١٩١) راجع ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٩٣.

ومـنهم «أبـو عبـد الله زكريـا بـن محمـود القاضـي المعـروف بـالقزويني» صـاحب عجائـب المخلوقـات وغيـره مـن الكتـب. وغيـر هؤلاء كثير.

(٣) مؤلفاته:

الشيـخ الأكبـر تـرك عـددا لا يحصـى مـن المؤلفـات، ويبـدو أن كثيـرا مـن هـذه المؤلفـات قـد فقـدت، فقـد حـدث الفيروزابـادي:- «وقفت على إجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها، وأجزته أن يروي عني مصنفاتي ومن جملتها كذا وكذا، حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف»[١٩٢].

وقد ذكرت مصادر مختلفة أن ابن عربي له ما يقرب من ثلاثمائة مصنف، فدائرة المعارف الإسلامية تقول «ويبلغ ما بقى من تواليفه مائه وخمسين كتابا، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن العربي في الواقع»[١٩٣].

وتقـول دائـرة المعـارف البريطانيـة «أنـه كتـب ٢٨٩ كتابـا نعـرف منها ١٥٠ كتابا ذكرها يروكلمان في كتابه الأدب العربي[١٩٤].

(١٩٢) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٩.

(١٩٣) دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ مادة ابن عربي.

(١٩٤) دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٢ ص ٣٣.

وقد بذل «بروكلمان» المستشرق الألماني مجهودا مشكورا في حصر ما بقي من كتب ابن عربي، وضمنها موسوعته الضخمة التي تضم أسماء الكتب والمؤلفين العرب، وافرد لهذه الكتب ما يقرب من ثماني صفحات تحمل الأولى منها قم ٥٧١.

وهذا ثبت بأسماء هذه الكتب التي ذكرها بروكلمان[١٩٥].

١- أجازة للملك المظفر بهاء الدين غازي الملك العادل في جميع ما رواه عن أشياخه وما له من نثر ونظم، وهو في دمشق سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م.

٢- رسالة في تعليم المريدين.

٣- كتاب العظمة (تفسير للفاتحة).

٤- كتاب التفسير بالحقيقة.

٥- مشكاة الأنوار فيما روى عن الله سبحانه وتعالى من الأخبار.

٦- الأحاديث القدسية.

٧- تذكرة الخواص وعقيدة أهل الاختصاص.

٨، ٩- رسالة العلوم من عقائد علماء الرسوم (مختارات).

---

(١٩٥) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ ١ ص ٥٧١.

١٠- صيحة اليوم بحوادث الروم (شعر بالبسيط) ١٤٣ بيتا.

١١- الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية والملكوتية.

١٢- فصوص الحكم.

١٣- شجرة الوجود والبحر المورود – مطبوع تحت شجرة الكون.

١٤- عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب.

١٥- رسالة كنه ما لابد للمريد منه.

١٦- الاسرا إلى المقام الأسري (في نفس المخطوط يوجد عنوان. الاسرا واختصار رحلة العالم الكوني إلى الموقف الأعلى).

١٧- مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية.

١٨- التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية.

١٩- مواقع النجوم ومطالع أهله الأسرار والعلوم.

٢٠- مقام القربة (وفك الكربة).

٢١- الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار.

٢٢- الخلوة.

٢٣- إنشاء الدوائر الاحاطية على الدقائق على مضاهاة الإنسان للخالق والخلائق.

٢٤- الحق.

٢٥- عقلة المستوفز.

٢٦- تحفة السفرة الى حضرة الكرام لبررة.

٢٧- الحجب.

٢٨- وصف تجلي الذات(منسوب إليه).

٢٩- حلية الإبدال وما يظهر فيها من المعارف والأحوال.

٣٠- شجون المشجون وفتون المفتون.

٣١- الشواهد.

٣٢- الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني.

٣٣-كيمياء السعادة.

٣٤- الإفاضة لمن أراد الاستفاضة.

٣٥- منزل المنازل.

٣٦- الموازنة (مقارنة بين الدنيا والآخرة).

٣٧- نحت الأرواح (كيف خلق الله الروح والمنازل التي لابد لها أن تمر عليها لمعرفة الله).

٣٨- الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق من الشروط.

٣٩- الإعلام فيما بني عليه الإسلام.

٤٠- الإعلام بإشارات أهل الإلهام (الحكمة الإلهامية في الرد على الفلسفة).

٤١- الفناء في المشاهدة.

٤٢- مراتب علوم الوهب.

٤٣- في الأزل.

٤٤- شق الجيب ورفع حجاب الريب عن إظهار إسرار الغيب.

٤٥- تفسير أيه الكرسي.

٤٦- إشارات القرآن في عالم الإنسان.

٤٧- كتاب السبعة وهو كتاب الشأن.

٤٨- تنزلات الأملاك للأملاك في حركات الأفلاك.

٤٩- توحيد التوحيد.

٥٠- التدقيق في بحث التحقيق.

٥١- القسم الإلهي باسم الرباني.

٥٢- المضادة في علم الظاهر والباطن.

٥٣- الغايات فيما ورد من الغيب في تفسير بعض الآيات.

٥٤- تاج الرسائل ومنهاج الوسائل.

٥٥- الرسالة المفيدة.

٥٦- الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت بهم في الآخرة ورسالة روح القدس (رسالات القدس في نفحات النفس).

٥٧- الجلالة.

٥٨- جواب عن مسألة السبحة السوداء وهي الهيولا.

٥٩- رسالة النشأتين

٦٠- مفاتيح الغيب.

٦١- تهذيب الأخلاق.

٦٢- المدخل إلى معرفة مأخذ النظر في الأسماء والكنايات الإلهية.

٦٣- القطب والنقباء.

٦٤- وسائل المسائل.

٦٥- تاج التراجم.

٦٦- ترجمان الألفاظ المحمدية.

٦٧- الاصطلاحات الصوفية.

٦٨- شرح الألفاظ التي تداولها الصوفية.

٦٩- المقتنع في إيضاح السهل الممتنع.

٧٠- الحروف الثلاثة التي انعطفت أواخرها على أوائلها.

٧١- الإلف وهو كتابة الاحدية.

٧٢- الباء وهو مفتاح دار الحقيقة.

٧٣- كتاب الياء وهو كتاب السهو.

٧٤- مفتاح الجفر الجامع.

٧٥- جفر الإمام علي بن أبي طالب.

٧٦- أسرار الحروف.

٧٧- جفر النهاية ومبين خبايا أسرار كنوز البداية والغاية.

٧٨- فائدة (الألعاب السحرية بالحروف).

٧٩- مائة حديث وواحد قدسية.

٨٠- نسب الخرقة.

٨١- التجليات الإلهية.

٨٢- عظة الألباب وذخيرة الاكتساب (منسوب إليه).

٨٣- إنشاء الجسوم الإنسانية.

٨٤- نتيجة الحق.

٨٥- عيون المسائل.

٨٦- توقيعات.

٨٧- أسرار الوجود.

٨٨- أسر المحبة.

٨٩- بلغة الغواص في الأكوان الى معدن الإخلاص في معرفة الإنسان.

٩٠- قبس الأنوار وبهجة الإسرار.

٩١- الفرق الست الباطلة وذكر أعدادها.

٩٢- الأجوبة اللائقة عن الأسئلة الفائقة.

٩٣- الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة.

٩٤- مرآة المعاني لأدراك العالم الإنساني.

٩٥- ثواب قضاء حوائج الإخوان وإغاثة اللهفان.

٩٦- الإمام المبين الذي لا يدخله ريب ولا تخمين.

٩٧- التنزلات الموصلية.

٩٨- جدول عظيم في استخراج العقل من القرآن العظيم.

٩٩- إسفار من سفر نوح.

١٠٠-رسالة العبادة.

١٠١- شرح كتاب خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين.

١٠٢- رسالة في الاحدية. (أسئلة حكيم ترمذي).

١٠٥- رسالة أرسلها لأصحاب الشيخ عبد العزيز بن محمد المهدي.

١٠٦- رسالة الغوثية.

١٠٧- رسالة أرسلها إلى فخر الدين الرازي.

١٠٨- رسالة في تصوير ادم على صورة الكمال.

١٠٩- اربع رسائل تصوف.

١١٠- نسخة الحق.

١١١- لغة الأرواح.

١١٢- الصلاة الاكبرية.

١١٣- أوراد الأيام والليالي

١١٤ - أوراد الأسبوع

١١٥- الصلاة الفيضية.

١١٦- وصية.

١١٧- الحكم الإلهية.

١١٨- الصحف الناموسية والسجف الناووسية.

١١٩- الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية.

١٢٠- حكم. ١٢١- العبادة.

١٢٢- اللمع الأفقية.

١٢٣- محاضرات الإبرار.

١٢٤- ترجمان الأشواق.

١٢٥-ديوان (الديوان الأكبر).

١٢٦- ديوان الأشواق (الهجاء الأمجد على ترتيب حروف الابجد).

١٢٧- ديوان المرتجلات.

١٢٨- المبشرات.

١٢٩- تنزل الأرواح بروح الإله.

١٣٠- القصيدة التائية.

١٣١- منهاج العارف والمتقى ومعراج السالك والمرتقى.

١٣٢- المبشرات الميمونة.

١٣٣- قصيدة في المناسك.

١٣٤-الجواب المستقيم.

١٣٥- رسالة تحقيق وجوب الواجب لذاته.

١٣٦- في سر الحروف.

١٣٧- نجمات الأفلاك.

١٣٨- الدرر.

وقد ذكرت دائرة المعارف للبستاني له ما يقرب من خمسين مؤلفا من بين هذه المؤلفات. وهذه المؤلفات التي ذكرت على ضخامة عددها هي نصف مؤلفات ابن عربي فقط، على رأي الذي يقول أن مؤلفاته مائتان وثمانون كتابا أو ثلاثمائة كتاب، وهي ثلث مؤلفاته عند من يقول نيف وأربعمائة كتاب.

وأيا كان هذا أو ذاك فهو نتاج ضخم يشهد لصاحبه بالمقدرة الخارقة الفائقة، وهو وإن كان بعض هذه الكتب صغير الحجم، إلا أن بعضها كبير الحجم، فقد بلغ أحد تفاسيره ستين سفرا[١٩٦]. ولم يتمه، فقد وقف فيه عند قوله تعالى «وعلمناه من لدنا علما» وله تفسير آخر صغير في ثمانية أسفار، وكتاب الفتوحات المكية بلغت فصوله خمسين وستمائة في أكثر من أربعة آلاف صفحة مطبوعة بحروف صغيرة على أن المسالة ليست بكثرة الأوراق وتضاعف الأجزاء، ولكنها بما تحويه هذه الأوراق من أسرار ومعارف، والشيخ الأكبر له في ذلك القدح المعلي والشأو الذي لا يلحق بشهادة فحول العلماء وأجلاؤهم.

والملحوظ أن تأليف الشيخ الأكبر تدور حول التصوف فيما عدا أحد تفسيريه الذي يجري فيه على طريقة التفسير التقليدي، ولم يتم هذا التفسير، أما التفسير الأخر فيجري فيه على طريقة الصوفية في إشاراتهم وأذواقهم.

وله من الحديث عدة كتب في كل منها مجموعة من الأحاديث القدسية، وله بدار الكتب كتاب لم يشر اليه بروكلمان يحمل اسم «أصول الفقه» برقم ٦١٢ أما بقية كتبه فتناول فيها التصوف ودقائقه وأسراره، حتى الكتب الأدبية كتب صوفية بما في ذلك «محاضرة

(١٩٦) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٩ هامش.

الأبـرار» الـذي يحشـد فيهـا كثيـرا مـن الأسـرار الصـوفية وقصـص المتصوفة وبعض هذه الكتب دقيق غريب ككتاب «الدوائر» الذي يشرح فيه بالإشكال الهندسية آراءه في الكون.

ويفسر في كتاب "مواقع النجوم أسرار العبادات ومراحل الطريق في الوصول إلى الله "وقد ألفه في «المرية» بالهام من الله وتوجيه منه.

ويبدو أن الشيخ الأكبر في كتاباته كان يخضع لهذا التوجيه وذلك الإلهام، فإنه قرر في أكثر من موضع أن ذلك الكلام لم يكن اختيارا له ولكنه من إلهام الله له، نقل عنه الشعراني في الكبريت الأحمر قوله: «واعلم أن جميع ما أتكلم به في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، فإني أعطيت مفاتيح لفهم فيه والإمداد منه، كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسه الحق تعالى ومناجاته بكلامه» وكذلك قوله «واعلم أن جميع ما أكتبه في تأليفي ليس هو عن روية وفكر، وإنما هو من نفث روعي على يد ملك الإلهام» وكذلك قوله «جميع ما كتبته واكتبه في هذا الكتاب أنما هو من إملاء الهي وإلقاء رباني أو نفث روحاني كل ذلك بحكم الإرث للأنبياء والتبعية لهم لا بحكم الاستقلال»(١٩٧).

---

(١٩٧) الكبريت الأحمر ص ٤.

وكل كتبه تحتاج إلى دقة فهم وحسن ظن في التوفر على مطالعتها حتى يتمكن القارئ من معرفة مقاصده منها، وقد أشار هو إلى ذلك في الباب الثاني من الفتوحات بقوله «أقل درجات أهل الأدب مع القوم التسليم لهم فيما يقولون، وأعلاها القطع بصدقهم وما عدا هذين المقامين فحرمان»[١٩٨].

ولكي تدرك ذلك لابد من إلقاء الضوء على بعض كتبه التي كانت لها أهميتها الفائقة في جميع الآفاق العلمية والعقلية، وهذه الكتب هي الفتوحات المكية، وفصوص الحكم.

١- الفتوحات المكية:

ألف الشيخ الأكبر هذا الكتاب في مكة على فترات، وهو أجمع كتاب في التصوف، وتعتبره دائرة المعارف البريطانية دائرة معارف التصوف، وكان هذا الكتاب – ولا يزال– له أهمية كبرى بين رجال الطريق، فقد عبر فيه ابن عربي عن كل أذواقه ومشاهداته وسجل فيه بدقة كل مراحله في سيره، حتى لقد استقى منه بعض المترجمين لحياته دقائق سيرته.

بدأ ابن عربي كتابه الفتوحات عقب ذهابه إلى مكة، وهناك شاهد في الطواف حول الكعبة. وفي الإقامة فيها من الأسرار

---

(١٩٨) الكبريت الأحمر ص ٦

والمشـاهدات مـا أراد أن يوقـف عليـه إخوانـه المقـربين إليـه، وفـي مقدمتهم الشيخ أبو محمد عبد العزيز التونسي وتلميذه بدر الدين الحبشي، ولذلك كان عنوانه «الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية».

والكتاب ضخم يحتوي على أربعة أجزاء ضخمة، وكل جزء يحتوي على مجلدات، وينقسم الكتاب من حيث الموضوعات إلى ستة أقسام:

١- القسم الأول: المعارف ويحتوي على ثلاثة وسبعين بابا

٢- القسم الثاني: المعاملات ويحتوي على ستة عشر ومائة باب

٣- القسم الثالث: الأحوال ويحتوي على ثمانين بابا

٤- القسم الرابع: المنازل ويحتوي على أربعة عشر ومائة باب

٥- القسم الخامس: المنازلات ويحتوي على ثمانية وسبعين بابا

٦- القسم السادس: المقامات ويحتوي على تسعة وتسعين بابا

فجملـة أبوابـه سـتون وخمسـمائة بـاب، تتنـاول شـتى العلـوم والمعارف الصوفية، كما تتناول غيرها من العلوم، والمعارف الأخرى

التي يستدعيها الحديث من فقه وحديث ومعاملات وتاريخ وسياسة وغير ذلك. يقول عنه الشعراني: «طالعت من كتب القوم مالا أحصيه وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية، لاسيما ما تكلم فيه من أسرار الشريعة، وبيان منازع المجتهدين التي استنبطوا منها أموالهم، فإن نظر فيه مجتهد من الشريعة ازداد علما إلى علمه واطلع على أسرار في وجوه الاستنباط وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده، وإن نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك، أو مقرئ فكذلك، أو معبر للمقامات فكذلك، أو عالم بالطبيعة وصنعة الطب فكذلك، أو عالم بالهندسة فكذلك، أو نحوي فكذلك، أو منطقي فكذلك، فهو كتاب يفيد أصحاب هذه العلوم أو غيرها، علوما لم تخطر لهم على بال، وقد اشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء»[١٩٩].

وكتاب الفتوحات نظرا لضخامته لا يمكن أن يكون قد ألف في مدة محدودة، وإن كان بعض المصادر يشير إلى أنه كان يكتب كل يوم منه ثلاث كراسات دون توقف أين كان[٢٠٠]. وقال الفيروزابادي: أنه صنف الفتوحات في مكة كتبها عن ظهر قلب جوابا لسؤال سأله

(١٩٩) الكبريت الأحمر المقدمة.

(٢٠٠) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠٨.

عنه تلميذه بدر الحبشي، ولما فرغ منها وضعها في سطح الكعبة المعظمة، فأقامت فيه سنة ثم أنزلها فوجدها كما وضعها لم يبتل منها ورقة ولا لعبت بها الرياح مع كثرة أمطار مكة ورياحها، وما أذن للناس في كتابتها وقراءتها إلا بعد ذلك[٢٠١].

ولكن يبدو أن ذلك كان بخصوص بعض الكتاب لا كل الكتاب، فإن الثابت أن هذا الكتاب كان آخر كتبه تأليفا، ذكر ذلك الأستاذ أحمد يوسف نجاتي في نفح الطيب[٢٠٢]. كما ذكر أنه قد انتهى من تأليفه سنة ٦٣٦هـ، وكان في ذلك الوقت مقيما بدمشق قبل وفاته بعامين، كما أنه من الثابت أيضا أن هذا الكتاب لم يمكن تأليفه متتابعا، ولكنه ألف على فترات، ولم يتم تأليفه أيضا على حسب الترتيب المتعارف، فقد ذكر أسين بلاثيوس أنه في سنة ٦٢٨ هـ كان يكتب أول الجزء الرابع، وأنه في سنة ٦٣٤ كان لا يزال يكتب خاتمة الجزء الثاني وفي السنة التالية ٦٣٥ كان يكتب الجزء الثالث. وليس هناك من يفسر سبب ذلك إلا ما ذكره هو بأن ترتيب الفتوحات لم يكن من وضعه هو، ولكن كان بناء على ما كان يملى عليه من توجيهات سماوية، ولذلك نسمعه يقول: بنيت كتابي هذا —

---

(٢٠١) اليواقيت والجواهر ص ١٠.

(٢٠٢) نفح الطيب جـ ٧ هامش ص ١٣٦.

بـل بنـاه الله لا أنـا – علـى إفـادة الخلـق، فكلـه فـتح مـن الله تعـالى وسلكت فيه طريق الاختصار.

وليس من اليسير إعطاء فكرة ولو موجزة عن هذا الكتاب الذي «يعد كنزا دفينا» على حد تعبير مؤلف كتاب ابن عربي. اللهم إلا إذا قلنا كما قال السادة الصوفية عنه: إنه اجمع كتاب للتصوف بما احتوى عليه من دقائق التصوف وإرشاداته، ومن الموضوعات العامة للكتاب السابق الإشارة إليها يمكن إدراك ذلك بوضوح، كما انه لم يهمل العلوم الأخرى، حتى أنه ليجد فيه كل مطلع بغيته ورغبته.

ويغلب على كتاب الفتوحات الاستطراد الذي يبعث عليه الرغبة في الإفادة التي هدف إليها من وضع كتابه، كما أنه لم يغفل في كتابه ما يحتاج إليه المريد من خطوط أساسية تعينه على بلوغ هدفه وسيره في طريقة بأمان. وكثيرا ما يشير فيه إلى كتبه السابقة.

ولـم يغفـل ابـن عربـي مـا يجـب علـى المريـد معرفتـه مـن أسـرار العبـادة وآدابهـا، مقـدما لـه فـي الجـزء الأول زادا كافيـا فـي النيـة والطهـارة وأنواعهـا وأسـرارها والصـلاة وفروضـها وشـرائطها وأركانهـا وسننها وأوقاتها وآدابها وكيفية إقامتها وإسرار أدائها وغير ذلك من ألوان المعرفة الفقهية والشرعية التي تصل بالمريد إلى أبواب المعرفة الصوفية الشاملة.

ويعد كتاب الفتوحات سجلا لحياة الشيخ الأكبر، فقد بين فيه بالتواريخ خطوات حياته التي أفاد منها بعض المترجمين لها، كما أنه يعد سجلا لما شاهده في تاريخ هذه الحياة الحافلة بالإسرار والأنوار وما كشف له فيها وما لاقاه من مصاعب وما أتيح له فيها من فرص روحية.

على أن ذكر هذه الخطوات لم يأت على نظام كتابة السير المعروفة، ولكنه يأتي عفوا على حسب ما تسنح به المناسبة ويستدعيه المقام. فهو عند حديثه عن الإبدال مثلا يذكر من لقيه منهم ومتى، ويسجل ما دار بينه وبينهم من حديث. وعند حديثه عن التوكل يذكر من لقيه من المتوكلين ومتى وأين وكيف كان حديثه معه وماذا أفاد منه.

وعند حديثه عن الخضر يذكر طرفا من لقائه معه وماذا دار بينهما من حديث وهكذا.

ومن الكتاب ندرك أن تأليفه لم يكن يسير على نمط الكتب العادية التي تجرى على منهج معين وتسير على حسب خطة موضوعة. ولكنه يسير على وفق ما يجري به الخاطر الروحي وقد ذكر ذلك في غير موضع ويقول: «واعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكري، وإنما الحق تعالى يملي لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلاما بين كلامين

لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبيه بقوله تعالى «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» بين آيات طلاق ونكاح وعدة وفاة تتقدمها وتتأخرها»(٢٠٣). ويقول «اعلم أن العارفين إنما كانوا لا يتقيدون بالكلام على ما بوبوا عليه فقط لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الإلهية مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أمر بادرت لامتثاله، وألفته على حساب ما حولها، فقد تلقى الشئ إلى ما ليس من جنسه امتثالا لأمر ربها»(٢٠٤).

وفي أول بعض الأبواب نجد قصيدة من الشعر تشير إلي مضمون الباب وقد لا تشير إليه وهذه الطريقة سار عليها الجيلي من بعده في كتاب الإنسان الكامل. وقد أشار الشيخ الأكبر نفسه إلى هذه الملحوظة، وهي عدم إجمال موضوع الباب في القصيدة المتقدمة في بعض الأحيان بقوله: واعلم أن هذه القصيدة وكل قصيدة من أول كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها إجمال ما يأتي مفصلا في نثر الباب والكلام عليه، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب فلا يتكرر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر، فلينظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه نفس الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر

(٢٠٣) الفتوحات المكية الجزء ٣ الباب ٣٤٨.

(٢٠٤) الكبريت الأحمر: المقدمة.

وهي مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها إلا أن يكون بين المسألتين رابطة فيطلب بعضها بعضا».

ونظرا لخطورة هذا الكتاب وما يحتوي عليه من معلومات أثارت معارك جدلية غير قليلة برز الاهتمام به بين الصوفية وغيرهم.

ويبدو أن بعض المغرضين قد أضاف إليه ما ليس منه مما يعد منافيا للشريعة بقصد الإضرار بمؤلفه، وحين قوبلت هذه النسخ المحرفة بالنسخة الأصلية ظهر الزيف وكانت النسخة الأصلية محفوظة «بقونية».

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هناك كثيرا من القضايا الواردة في الفتوحات ليس من الممكن فهمها بسهولة، ويرجع ذلك إلى إن إدراكها لا يتم إلا لمتمكن من الطريق الصوفي، ومن هنا جاء التنبيه إلى أنه لا يحق لكل من أراد الاطلاع أن يطلع على هذا الكتاب، وهذا الحكم ليس منصرفا في الواقع إلى كتاب الفتوحات وحده، ولكنه ينصرف إلى الفتوحات وغيره من الكتب التي ألفها الشيخ الأكبر.

وقد شرح الجيلي كتاب الفتوحات، كما تأثر به من كتابه المشهور «الإنسان الكامل» في معرفة الأواخر والأوائل.

واختصره الشعراني في كتاب «لوائح الأنوار القدسية»، وعاد فاختصره مرة أخرى من كتابه «الكبريت الأحمر»، وذكر في كتاب «اليواقيت والجواهر» مسائل متعددة منه ومن ذلك مثلا قال «محيي الدين بن عربي» في صفة العارف بالله:

«هو من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق تعالى وإذا ذكر الله واستولى عليه الذكر يغيب عن الأكوان، يهابه كل ناظر إليه، هو مع الله بلا وصل ولا فعل، كثير الحياء، في قلبه التعظيم، يقدم حق الحق تعالى على حظوظ نفسه وبطنه جائع، وبدنه عار، لا يأسف قط على شئ قط على شئ لكونه لا يرى غير الله. طيار أمد الدهر، تبكي عينه ويضحك قلبه، هو كالأرض يطؤه البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي ما يجب وما لا يجب، لا يقضي وطره قط من شيء، وذلك ليدوم افتقاره إلى الله تعالى ذوقا، شأنه الفقر والذل بين يدي الله يفتح له في فراشه كما يفتح له في صلاته وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن».

وللفتوحات مقدمة طويلة لها قصة طريفة، هي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أحاط به الملائكة والأنبياء والأولياء والعلماء، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم للصعود على منبره،

وخلع عليه بردته البيضاء، وألقى «ابن عربي» خطبة طويلة يقول إنها من وحي روح القدس، وهذه الخطبة هي مقدمة الكتاب.

والمقدمة نفسها تحتوي على آرائه الروحية التي يوضح فيها مضمون موضوعات الكتاب السابق الإشارة إليها.

وبالجملة فإن هذا الكتاب من الكتب التي تستحق جهد المهتمين بشئون التصوف، فيتولونه بالتحقيق ويتعهدونه بالنشر وجودة الطبع في ثوب أنيق جميل يليق بما يحتويه من علوم رائعة وأسرار فائقة وأذواق عالية – ويا حبذا لو تيسر اقتناؤه مع غيره من كتب هذا العبقري الفذ الذي كان يحلق في أجواء المعرفة لا يهدأ له بال ولا يستريح من عناء التجوال – وترك من ورائه هذه الثروة الحية التي تشهد بعلو الباع ورسوخ القدم وقوة التمكن.

وحمدًا لله فقد تحقق جزء من هذه الأُمنية العزيزة حين تضافر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وجامعة السوربون على تحقيق هذا الكتاب ونشره عن طريق الهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد ثارت ضجة أشرت إليها سابقًا، وإن كان هُناك تعقيب على هذه الضجة التي قامت من أجل هذا الكتاب وعقيدة صاحبه فحسبي أن أقدم هذه الفقرات التي وردت في أول الجزء الأول منه:

«يا أخوتي المؤمنين – ختم الله لي ولكم بالحسنى – أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولًا وعقدًا أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته منزه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له، ملك لا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في وجوده، فالعالم كله موجود به وهو وحده متصف بالوجود لنفسه. فسحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الإحسان، كل ما سواه عن وجوده فائض.

كذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واجتباه من وجوده، ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا.. وإني مُؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمته وما لم أعلم، فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يُؤديها، لذا سئلها حيثما كان».

هذا وإن كان ابن عربي قد آثره الله بشيء من الكشف وأعطاه جزءًا من الفتح فقد استحق ذلك عن جدارة فائقة جزاء لمجاهداته

ولكل مجتهد نصيب، على أن الفيض الإلهي منحة من الله لمن شاء من عباده، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

وفي هذا الكشف أسرار قد ترق وتدق وأحيانًا تفيض على اللسان رغمًا ولكنها تأتي محجبة بالرموز، وكم لاقى أصحابها من المعارضات والإنكار لأنهم تحدثوا عمّا لا تدركه العقول، ولذلك صرح ابن عربي في كتابه هذا بِأَن عقيدته هذه هي عقيدة العوام التي أشرت إليها بالعبارة التي استشهدت بها مختصرة من كلامه، وهذه العقيدة هي عقيدة الذين سلمت عقائدهم لأنهم تلقوها من ظاهر الكتاب العزيز، وهو لذلك يدعو إلى عدم تعلم علم الكلام إلا لأفراد قلائل بقصد ردع الخصوم ودفع الشبه، ويقول في حق علماء الكلام: أنهم رضي الله عنهم اجتهدوا وخيرًا قصدوا وإن كان الذي تركوه أوجب عليهم من الذي شغلوا نفوسهم به.

وعقيدة الخاصة وإن كانت مُطابقة لعقيدة العوام إِلَّا أن الكشف والإلهام والفتح يقويها ويُؤكدها، فهي إذن من عين اليقين، وما راء كمن سمعا، وشتّان بين من يسمع ويقلد وبين من يعاين ويشاهد، والمشاهدة تزيد المشاهد بيانًا وإيمانًا وتملؤه عقيدة وبرهانًا، وفي هذا يقول الغزالي:

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

ويقول ابن عربي في ذلك: وأما التصريح بعقيدة الخاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، ولكن جئت بها مبددة في أبواب هذا الكتاب مستوفاة لكنها متفرقة، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف قدرها ويميزها فإنها العلم الحق.

والعلوم في رأيه على ثلاث مراتب «علم العقل وهو كل علم له ضرورة أو عقيب نظر، وعلم الأحوال ولا سبيل إليه إلَّا بالذوق كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر.. وعلم الأسرار وهو العلم الذي فوق طور العقل، وهو علم نفث روح القدس في الروع، ويختص به النبي والولي».

إن علوم الأَسرار تلك هي التي يشير إليها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: عند تفسير قوله تعالى «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ»: لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي رواية لقلتم إني كافر، ويشبه قول الرضي:

يارب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنًا

وقد اعتذر ابن عربي عن نفسه وعن غيره من عُلماء الصوفية الذين غلبتهم أحوالهم فباحوا ببعض الأسرار كما اعتذر أيضًا عمّن أنكر عليهم بقوله: «وينبغي للعاقل العارف أن لا يأخذ عليهم فإن في

قصة موسى مع الخضر مندوحة لهم وحجة للطائفين، وإن كان إنكار موسى عن نسيان لشرطة ولتعديل الله إياه، وبهذه القصة عينها نحتج على المنكرين ولكنه لا سبيل إلى خصامهم، ولكن نقول كما قال العبد الصالح: "هذا فراق بيني وبينك"».

إن علم الأسرار عزيز وصعب المنال ومن خصائصه أن العبارة لا تستطيع أن تحتويه، بل إذا أخذته سمج واعتاص على الإفهام، ومن هنا لجأ الصوفية إلى الرمز، بخلاف العلم النظري فإن العبارة كلما بسطته حسن وفهم معناه أو قرب عند السامع الفهم.

وبعد، فإن هذا الكتاب كما يقول الدكتور عثمان يحيى أحد روائع الفكر الإنساني وأثر فريد في الدراسات الصوفية عامة والإسلامية خاصة، خلاصة نتاج الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، وما أغزره.. ولم ينل منا بعد حظه من الدرس والبحث عني به في الماضي عناية ملحوظة وانتشر في المشرق والمغرب بواسطة سلسلة مُتصلة الأسانيد، وشرح وعلق عليه ولخصت أخزاء مُختلفة منه، وترجعت بعض أجزائه إلى الفارسية والتركية.

وليس في وسعي – لعجزي – تلخيص الكتاب وبخاصة في دراسة قصيرة كهذه وحسبي أن كنت في هذه العجالة واحدًا من الدالين إليه الناصحين بالتوفر على قراءته ودراسته فهو كنز دفين كما قال العُلماء الذين عرفوا حقه، ولو قرأه الناقمون عليه بإخلاص لغيروا

رأيهم، وأدركوا قيمة ما فيه من جواهر فريدة، ويكفي أن يكون مُؤلفه قد ألفه للدلالة على الله، وهل هُناك أشرف من هذا الغرض وأسمى من هذا الهدف؟

٢- فصوص الحكم:

يعد هذا الكتاب من أشهر الكتب التي كان لها أثر في إذاعة مكانة الشيخ الأكبر، نظرا لما يدل عليه من أخبار عن حقائق الأنبياء السابقين وعددهم سبعة وعشرون نبياهم: آدم، وشيت، ونوح، وإدريس، وإبراهيم، وإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، والعزيز، وعيسى، وسليمان، وداود، ويونس، وأيوب، ويحيي، وزكريا، واليأس، ولقمان، وموسى، وهارون، وخالد بن سنان، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وقد ألف ابن عربي هذا الكتاب في دمشق عقب اتخاذها دار إقامة له، ويقول في مقدمة كتابه: «أما بعد فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها من العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب، فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم، خذه واخرج به إلي الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله، ولرسوله ولأولى الأمر منا، كما أمرنا فحققت الأمنية وأخلصت النية، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما عده لي الرسول من غير زيادة أو نقصان، ليس

للشيطان عليهم سلطان، وأن يخصني من جميع ما يرقمه بناني وينطق به لساني وينطوي جناني بالإلقاء السبوحي والنفث الروحي في الروع النفسي بالتأييد ألاعتصامي، حتى أكون مترجما لا متحكما، ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس، المنزه عن الأغراض النفسية التي يدخلها التلبيس، وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائي قد أجاب ندائي، فما ألقى إلا ما يلقى إلي، ولا أنزل من هذا المسطور إلا ما ينزل به علي، ولست بنبي ولا رسول ولكني وارث ولآخرتي حارث».

معنى كلمة الفص:

وقد استعار كلمة الفص للإنسان الذي يمثل الحقيقة بالنسبة لبقية أنواع العالم كما يمثل نقش الفص في الخاتم حقيقة الخاتم. فكأن العالم خاتم فصه الإنسان، وهذا يبين أفضلية الإنسان على العالم، ثم جعل الأنبياء فصوصا بالنسبة لأفراد الإنسان، فكأن الإنسان خاتم فصه الأنبياء.

وقد أشار القاشاني إلى هذه التسمية عند تعرضه لشرح أول فص من فصوص الحكم قائلا: «لما استعار الفص لنوع الإنسان وحقيقته المعبر عنه بآدم كان قلب كل إنسان عارف بالله كامل فصا هو محل حكمته المخصوصة به» كما أشار ابن عربي نفسه إلى سبب هذه التسمية عند حكمة آدم بقوله: «فهو (أي آدم) من العالم

كفص الخاتم من الخاتم هو محل النقش والعلامة التي يختم الملك على خزائنه».

الكتاب من علوم الأسرار:

وقد عمد الشيخ الأكبر كعادته في تأليفه إلى الإفاضة في الأسرار التي كوشف بها، وتوصل إليها بناء على ذوقه وفهمه، فإن العلم في نظره ثلاثة أنواع، كما أشار إلى ذلك في كتاب الفتوحات، هي علم العقل الذي يحدث بناء على النظر والتفكير والاستدلال، وعلم الأحوال وسبيله الذوق، وعلم الأسرار وهذا فوق طور العقل، وطريقه نفث الروح في الروع، وهذا العلم نوعان: نوع يدرك بالعقل والآخر على ضربين: ضرب يدرك بالذوق والثاني عن طريق الأخبار.

وهذا العلم الذي بثه في كتابه فصوص الحكم من النوع الثالث، الذي فوق طور العقل وجاءه عن طريق نفث الروح في روعه كما أشار إلي ذلك في مقدمة كتابه، ولذلك فقد أوجد هذا الكتاب صدى كبيرا بين طوائف الصوفية والفقهاء وعده كثير منهم معبرا عن رأي ابن عربي فيما أسند إليه من نظرية وحدة الوجود، ولكن ينبغي التنبه إلى ما سبق الإشارة إليه من هذه الوحدة، التي لا يصح تفهمها على أساس اتحاد بين قديم وحديث أو حلول قديم في محدث، فذلك الذي نبه الصوفية جميعهم وبخاصة الشيخ الأكبر على وجوب نفيه من الأذهان تماما تعارضه مع جلال الذات الإلهية القديمة المحيطة

التي وسعت كل شئ ولم يسعها شئ، وأن وحدة الوجود التي يقصدونها إنما هي إثبات الوجود الحقيقي الواجب الوجود وأما غيره من المحدثات فلا وجود له على سبيل الحقيقة مع الله تعالى.

وقد نبه شراح الفصوص جميعهم على وجوب مراعاة هذه الدقائق، وأفاضوا فيها وشرحوا مقصد الشيخ من عباداته الموهمة التي وردت في الكتب من أمثال قوله من «نوح».

«فما أنت هو، بل أنت هو وتراه في عين الأمور مسرحا ومفيدا» فإن المقصود نفي المماثلة من جهة وإثباتها من جهة، نفيها من حيث أنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، وإثباتها من حيث الصفات التي التي يجب أن يتخلق بها الإنسان في قوله عليه الصلاة والسلام تخلقوا بأخلاق الله، فالإنسان له صفة السمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك. وهي صفات أثبتها الله جل جلاله لنفسه وعلى هذا فينبغي مراعاة أمثال هذا الإشارات في كلام الشيخ الذي لا يقصد منه حلولا أو اتحادا، بل هي عبارات واردة في أحوال خاصة عبر بها عن مدلولات ذاقها وكوشف بها، وكان القصد من بثها هو الصعود بالفكر الإنساني إلى مرتبة عليا، تحثه على بذل الجهد من إدراك معرفة نفسه التي هي سبيله إلى معرفة ربه، ولذلك نسمعه يوجه الأذهان إلى التفكير في مدلولات الكلام لأدراك ما يقصد إدراكا حقيقيا لا يتنافى مع مرامي الشرع ومقاصده:

فمــــــن الله فاســــــمعوا وإلــــــى الله فـــــارجعوا

فــــإذا مـــا ســــمعتم مـــا أتيـــت بـــه فعــــوا

ثـــم بـــالفهم فصـــلوا مجمـــل القـــول وأجمعـــوا

ثـــم منـــوا بـــه علـــى طالبيـــــه لا تمنعـــــوا

هـــذه الرحمـــة التـــي وســـعتكم فوســـعوا

مراتب الأنبياء:

وقد أشار ابن عربي في كتاب الفصوص إلى الأنبياء على حسب مراتبهم، فآدم أراد الله أن يظهر به سره إليه، وشيث وهو الولد الأول لآدم هو المظهر للفيض الإلهي، ونوح هو مظهر تنزيه الله عن كل نقص، وإدريس كذلك، ولذلك أضاف نوحا إلى التسبيح وإدريس إلى التقديس، وإبراهيم عليه السلام –كان في مرتبة التهيم، وهو شدة التوله والعشق لأن الحق تجلي له بجلال جماله فهام في ذلك الجمال المبرقع بالجلال، وكان اسحق في مقام التحقق لأنه حقق رؤيا أبيه فيه بذبحه[٢٠٥]، وخص إسماعيل بالحكمة العلية، وغلبت الروحانية على يعقوب والنور على يوسف.. وهكذا.

[٢٠٥] رأيه في هذا أن الذبيح إسحاق، ولكن المعروف عند جمهور العلماء أن الذبيح هو إسماعيل ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا ابن الذبيحين.

وقد عد ابن عربي لقمان من الأنبياء ووصفه بأنه من أهل مقام الإحسان وذلك لأن الغالب على حاله عليه السلام الإحسان بالشهود العلمي والحكمة والتوحيد والإسلام في قوله تعالى «ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» وقوله «وآتينا لقمان الحكمة» والحكمة والإحسان أخوان لأن الإحسان فعل ما ينبغي والحكمة وضع الشئ في موضعه، ويظهر ذلك في وصيته لابنه: يا بني لا تشرك بالله أن الشرك لظلم عظيم[٢٠٦]. وقد اختلف العلماء في شأن لقمان هل هو نبي أو حكيم،«وهو لقمان بن باعورا، ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آرز، وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام، فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له: لم؟ فقال: ألا اكتفى إذا كفيت؟. وقيل: كان قاضيا في بني إسرائيل، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا، وقال عكرمة والشعبي: كان نبيا، وقيل: خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة»[٢٠٧].

كما ذكر الشيخ الأكبر خبر النبي الذي أضاعه قومه وهو خالد ابن سنان وكان مشهده الصمدية، وهو نبي لم يبعث، أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله عنه: هو نبي أضاعه قومه.

---

[٢٠٦] شرح القاشاني على فصوص الحكم ص ٣٧٢.

[٢٠٧] بتصرف من الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٣ تفسير لقمان.

وكان من قصة خالد: أنه كان قوي الهمة، والغالب عليه شهود الأحدية، وكان هو وقومه يسكنون بلاد عدن، فظهرت بينهم نار عظيمة خرجت من مغارة فأهلكت الزرع والضرع، فصمد إليه قومه على حسب ما اعتادوا منه في دفع الملمات، حتى يدفع عنهم أذى تلك النار، وكانوا مؤمنين بها فأخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه من خلفها ويقول: يدا يدا، حتى بردت النار، فرجعت هاربة منه إلى المغارة التي خرجت منها، وهو يسوقها حتى أدخلها، ثم قال لأولاده وقومه: إني أدخل المغارة خلف النار حتى أطفيها، فأمرهم أن يدعوه بعد ثلاثة أيام تامة، فإنهم أن نادوه قبل انقضائها فهو يخرج ويموت وإن صبروا خرج سالما وقد دفع عنهم مضرة النار، فلما دخل صبروا يومين واستفزهم الشيطان فلم يصبروا تمام ثلاثة أيام، فارتابوا أنه هلك.

فصاحوا به فرجع عليه السلام من المغارة ويداه على رأسه من الألم الذي أصابه من صياحهم، فقال لهم: ضيعتموني وأضعتم قولي وعهدي، وأخبرهم بموته وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يوما، فإنه يأتيهم قطيع من الغنم يقدمها حمار أبتر مقطوع الذنب، فإذا حازى قبره ووقف فلينبشوا عليه قبره فإنه يقوم ويخبرهم بجلية الأمر بعد الموت عن ئهود ورؤية، فيحصل للخلق كلهم عين اليقين بما أخبرت به الرسل عليهم السلام.

ثم مات خالد، فدفنوه، فانتظروا مضي الأربعين يوما وورد قطيع الغنم فجاء القطيع كما يذكر يقدمه حمار أبتر، فوقف حذاء قبره، فهم مؤمنو قومه وأولاده أن ينبشوا عليه كما أمرهم، حتى يخبرهم بصدق الأنبياء والنبوات كلها، فأبى أكابر أولاده، وقالوا: يكون علينا عارا عند العرب أن ينبش على أبينا فيقال فينا: أولاد المنبوش، وندعى بذلك، فحملتهم الحمية الجاهلية على ذلك فضيعوا وصيته وأضاعوه.

ثم بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته بنت خالد فقال لها صلى الله عليه وسلم، مرحبا يا بنت نبي أضاعه قومه[٢٠٨].

وقد وردت هذه القصة في محاضرة الأبرار[٢٠٩]. وفي حياة الحيوان للدميري[٢١٠].

وختم الشيخ الأكبر فصوصه الحكمية بمحمد صلى الله عليه وسلم ليكون مسك الختام وهو ترتيب طبيعي لتنسيق الكتاب، ويوضح ابن عربي رأيه في الحقيقة المحمدية على اعتبار أنه صلى الله عليه وسلم في مقام الفردية، لأنه أول التعينات وكان أول دليل على ربه فهو أوتي جوامع الكلم التي هي مسميات آدم، فقد علم

---

[٢٠٨] شرح القاشاني على الفصوص من ٤٢٥.

[٢٠٩] جـ١ ص ٥٥.

[٢١٠] جـ٢ ص ٢٩٥ ط دار التحرير.

الله آدم الأسماء، وعلم محمدا حقيقة هذه الأسماء ومعانيها، وهذا هو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: أعطيت جوامع الكلم، وقد أشار إلى هذه الحقيقة في مؤلفاته الأخرى: مثل الفتوحات المكية وشجرة الكون.

رأي العلماء في الكتاب:

هذا وقد ذكر الأستاذ أحمد يوسف نجاتي في "نفح الطيب" أن العلماء اختلفوا فيما أورده فصوص الحكم ردا وقبولا، فبعضهم أثنى عليه وتقبله بقبول حسن وشرحه، ومن هؤلاء: ابن الزملكاني كمال الدين محمد بن علي الأنصاري الشافعي المتوفي سنة ٧٢٧ هـ، وشرحه أيضا المولى عبد الرحمن بن أحمد الجامي المتوفي سنة ٨٩٨ هـ وشرحه غير هذين كثير ومنهم الشيخ عبد الرازق القاشاني وعلق على هذا الشرح الشيخ محمد الباروني.

وفي حياة الشيخ الأكبر قام تلميذه صدر الدين القونوي بشرح هذا الكتاب واستمرت بعد ذلك الشروح تتوالى ومن بينها الشروح التي أشرنا إليها. وبذل في ذلك مجهودات وافرة تشهد بالمهارة وقوة الإدراك. وكانت هذه التفسيرات جميعها تتجه اتجاها سنيا لا يتعارض مع ظاهر الشريعة وفي ذلك شهادة لابن عربي بأنه لم يناقض مذهب أهل السنة. وإن كان البعض من كبار الصوفية المتشددين مثل القاري الهروي المتوفي سنة ١٠١٦ هـ. وكذلك التفتازاني

المتوفي سنة ٧٩١ هـ والشيخ إبراهيم محمد الحلبي الخطيب بجامع السلطان محمد خان المتوفي سنة ٩٥٦ هـ عارضوا ابن عربي في آرائه وألف بعضهم كتبا ترد على الفصوص.

وقد ترجمت أبواب الفصوص ترجمة موجزة إلى الهندية ونشرت في مدينة موراس سنة ١٩٢٩ م[٢١١].

وقد تأثر كثير من الصوفية بآراء ابن عربي في كتابه الفصوص وبخاصة في فكرة الحقيقة المحمدية التي سرعان ما اتجه إليها المادحون والشعراء والأدباء في قصائدهم وفي صيغ صلواتهم التي يمدحون فيها النبي ويصلون عليه.

ولعل البدوي وهو يكاد يكون معاصرا لابن عربي قد نحا هذا النحو فقد أثرت عنه هذه الصيغة: «اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد شجرة الأصل النورانية، ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية والبهجة السنية والرتبة العلية، من اندرج النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه..»[٢١٢].

---

[٢١١] ابن عربي ص ٦٨.

[٢١٢] فتح الرسول (صلوات للميرغني).

ويبدو أن ابن عربي ليس أول قائل بهذه الفكرة فقد سبقه إليها الحلاج وأثر عن ابن مشيس أستاذ الشاذلي المعاصر لابن عربي هذه الصلاة:

«اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقه، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شئ إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب –كما قيل– الموسوط، صلاة تليق بك منك اليه كما هو أهله، اللهم انه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه، وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرم بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملا محفوفا بنصرتك واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي بحار الأحذية، وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها»[٢١٣].

ومن صلوات سيدي أحمد بن أدريس التي تظهر فيها فكرة الحقيقة المحمدية واضحة قوله: «اللهم صل على طامة الحقائق الوجودية الكبرى، وسر الخلوة الإلهية ليلة الإسرا تاج المملكة

[٢١٣] (فتح الرسول (صلوات للميرغني).

الإلهية، ينبوع الحقائق الوجودية، بصر الوجود وسر بصيرة الشهود، حق الحقيقة العينية وهوية المشاهد الغيبية».

قال شارح الصلوات محمد بهاء الدين البيطاء: لا يخفى أن الحقيقة المحمدية أول التنزلات من الطمس الذاتي الذي لا يُعبر عنه بعبارة ولا يرتقي إليه بإشارة.. وإن كانت هُناك عبارة تشير إليه فهي ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر، وكنت نبيًا وآدم بين الماء والطين.

لقد كانت بشرية النبي صلى الله عليه وسلم نورًا محضًا حتى لقد ورد عنه قوله: إني لآراكم من وراء ظهري، وكان نور المصطفى صلى الله عليه وسلم هو المعنى بروح الله المنفوخ في آدم حيث يقول الله تعالى (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) وقد أشار إلى ذلك المعنى سيدي على وفا قدس الله سره:

لو أبصر الشيطان طلعة نوره في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمروذ باهر حسنه عبد الجليل مع الخليل وما مجد

ولعله يقصد بالطمس الذاتي ما ورد في الأثر القدسي: كنت كنزًا مخفيًا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني.

أما طامة الحقائق الكبرى فهي تشير إلى قوله تعالى:

«وما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى».

يعني رأى حقيقته التي هي طامة الحقائق فهي آية ربه الكبرى، إذ لم يكن أكبر منها ولا أشمل ولا أجمع فما زاغ بصره صلى الله عليه وسلم وما طغى.

أما المقصود بالخلوة الإلهية فهو ما كوشف به النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من معرفة حقيقة نفسه، تلك الحقيقة التي ظهرت في اقتداء النبيين عليهم السلام به في صلاة جامعة، فهو إمامهم وهو النائبون عنه في تبليغ دعوتهم إلى أممهم، فإن الدين عند الله هو الإسلام، ولذلك قال بعضهم في ذلك:

كل النبيين والرسل الكرام أتوا   نيابة عنه في تبليغ دعواه

فهو الرسول إلى كل الخلائق في   كل العصور ونابت عنه أفواه

ولقد ظهر ذلك واضحًا في قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ».

خاتمة

وبعد، فقد تتبعنا خطوات هذه الشخصية العظيمة التي تركت آثارها واضحة في كل مكان حطت زحالها فيه.

وهي شخصية. تحتاج إلى إفاضة أكثر في عرض مختلف الجوانب التي ذكرت والتي لم تذكر.

لقد كانت حياة الشيخ الأكبر سلسلة متواصلة من العمل والسعي والبحث والمعرفة والتجوال، لقد أنار الله بصيرته فذاق وكشف وشاهد ووصل إلى مكانة في المعرفة أطلق عليه من أجلها "سلطان العارفين" والعارف فسره هو بأنه من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق وفسره أبو العباس المرسى بقوله: العارف لا دنيا له، لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.

وكانت حياة «ابن عربي» تصديقا لهذين التفسيرين. فهو لم تصرفه علاقة عن ربه، ولم تكن له دنيا لأنه تركها لآخرته.

لقد كانت غايته المعرفة، ومنذ نعومة أظفاره وهو مجد في سبيل هذه الغاية هجر من أجلها كل لذة، واستعذب كل عناء، وركب كل صعب.

لقد رأينا كيف صوبت إليه سهام الملام وكيف اعترضت طريقه المصاعب فلم يثنه ذلك عن غايته، هكذا كانت حياته حافلة بالجهاد الأكبر. حتى تحقق بمختلف المقامات التي بدأها بالزهد العملي وانتهى بها إلي مقام المعرفة وهو أعلى مقامات الوصول.

لقد أفاض سلطان العارفين في أسرار المعرفة وتحدث عن حقائق تركت صداها العميق في آفاق الفكر الإسلامي وأبرز للتصوف مفاهيمه العليا في نواحيه الأخلاقية والنفسية والروحية، ولذلك يعده الدكتور مصطفى حلمي من أوفر المسلمين حظا من التصوف ويقول في ذلك «ولعل محيي الدين بن عربي قد أظهرنا على ائتلاف العناصر الإلهية والإنسانية والكونية واتساقها في كثير من مصنفاته، كما يقول: وليس من شك في أن ما يعرض له ابن عربي في مصنفاته يكفي لإظهار حقيقة التصوف الإسلامي وأنه ليس مجرد أشواق وأذواق ولا مجرد رياضيات ومجاهدات ولا مجرد أحوال وأفعال وإنما هو بعد هذا كله فلسفة إلهية وإنسانية وكونية وأن هذه الفلسفة بخصائصها الإسلامية الخالصة هي معقد الطرافة ومناط الروعة فيما خلف ابن عربي وأشباهه من صوفية المسلمين[٢١٤].

إن حياة الشيخ سلطان العارفين التي تألقت في آفاق الشرق الإسلامي على مدى ثمانين عاما ليست حياة شخص عاش هذه

---

[٢١٤] مجلة منبر الإسلام جمادي الآخرة ١٢٨١ هـ.

الحقبة من الزمن ثم راح. ولكنها حياة بدأت ولا زال أثرها حيا باقيا بما خلفته هذه الشخصية من مناقب وآثار، ومعارف تحيا عليها العقول والقلوب وتقتات منها النفوس والأرواح. وتحلق في سمائها الخواطر والأذهان.

رحم الله «ابن عربي» ورضي الله عنه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين.

عبد الحفيظ فرغلي القرني

المصادر

١) الفتوحات المكية (لابن عربي)

٢) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق (لابن عربي)

٣) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار (لابن عربي)

٤) الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق من الشروط (لابن عربي)

٥) شجرة الكون (لابن عربي)

٦) مواقع النجوم (لابن عربي)

٧) شرح القاشاني على فصوص الحكم (عبد الرازق القاشاني)

٨) الطبقات الكبرى (الشعراني)

٩) اليواقيت والجواهر (الشعراني)

١٠) الكبريت الأحمر (الشعراني)

١١) ابن عربي حياته ومذهبه (اسين بلائيوس) ترجمة د. عبد الرحمن بدوى

١٢) شذرات الذهب (لابن العماد)

١٣) الشعر الأندلسي (ترجمة د. حسين مؤنس)

١٤) نفح الطيب (للمقري) تحقيق أحمد الرفاعي

١٥) المغرب في حلى المغرب (تحقيق شوقي ضيف)

١٦) وفيات الأعيان (لابن خلكان)
١٧) ابن الفارض سلطان العاشقين (د.محمد مصطفى حلمي)
١٨) الحب الإلهي في التصوف الإسلامي (د.محمد مصطفى حلمي)
١٩) التصوف في الشعر العربي (عبد الحكيم حسان)
٢٠) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري (د.علي صافي حسين)
٢١) بين التصوف والأدب (محمد إبراهيم ألجيوشي)
٢٢) أبو الحسن الشاذلي (د.محمد عبد الحليم محمود)
٢٣) في الأدب الأندلسي (د.جودت ألركابي)
٢٤) رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام (طه عبد الباقي سرور)
٢٥) أعلام التصوف الإسلامي (طه عبد الباقي سرور)
٢٦) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (د.زكي مبارك)
٢٧) ابن عطا الله السكندري وتصوفه (د. أبو الوفا التفتازاني)
٢٨) الإنسان الكامل (الجبلي)
٢٩) شرح الرندي على حكم ابن عطاء الله (لابن عباد الرندي)
٣٠) إيقاظ الهمم على شرح الحكم (لابن عجيبة الحسنى)
٣١) التصوف عند المستشرقين (د.أَحمد الشرباصي)

٣٢) وحي القلم (الرافعي)

٣٣) تاريخ الأدب العربي (لبروكلمان)

٣٤) التعرف على مذهب أهل التصوف (للكلاباذي)

٣٥) مطهـرة النفـوس وروض القلـوب المسـتطاب (للشـيخ حسـن رضوان)

٣٦) الرسالة القشيرية (للقشيري)

٣٧) حياة الحيوان الكبرى (للدميري)

٣٨) فتح الرسول (صلوات للميرغني)

٣٩) شرح الصلوات الادريسية

٤٠) دائرة المعارف الإسلامية

٤١) دائرة المعارف البريطانية

٤٢) دائرة معارف البستاني

٤٣) دائرة معارف الشعب

٤٤) الموسوعة العربية الميسرة

٤٥) مجلة منبر الإسلام

٤٦) تفسير الكشاف (للزمخشري)



الفهرس

تقديم ٥
مقدمة المؤلف.. ١٢
البيئة والعصر ١٦
نسبه ومولده ونشأته.. ٢٤
إِقباله على طلب العلم – شيوخه في طلبه.. ٣٣
سلوكه الطريق الصوفي – الرحلات التي قام بها.. ٤٧
أَخلاقه ٩٣
ابن عربي الأديب ١٠٢
ابن عربي الصوفي.. ١٢٧
مجاهدة وأذواق ومعارف ١٤٦
ابن عربي بين أَنصاره وخصومه.. ١٨٣
آثار ابن عربي ٢١٠
خاتمة.. ٢٥٢
المصادر ٢٥٥